أهل السنة والجماعة

معالم الانطلاقة الكبرى

جمع واعداد

محمد عبد الهادي المصري

٢٣ ش أبو داود الظاهري
مدينة نصر ــ القاهرة
ت ــ فاكس : ٢٦٣٧٨٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

... إلى جميع المسلمين الصادقين ... أفراداً ... وجماعات الذين يراودهم التساؤل الكبير .. كيف نبدأ ؟ وماهي الأصول التي نتجمع عليها ؟ .. وماهي نقطة الإنطلاق في الاتجاه الصحيح ؟ ...

... إلى جميع المسلمين المخلصين ... أفرادًا .. وجماعات الذين يتطلعون الى ميلاد فجر صادق وبدء مرحلة جديدة وإنطلاقة حقيقية تجاه الهدف الإسلامي المنشود

... إلى جميع المسلمين الواعين ... أفرادًا .. وجماعات الذين يدركون أن إحياء الأمة الإسلامية من سباتها العميق والدفع بها الى مكانتها الطبيعي لتقود نفسها أولاً وتقود البشرية جمعاء مرة أخرى بأمر الله لن يتحقق من خلال جهود أفراد مهما كثروا ، أو تجمعات صغيرة أو كبيرة مهما تعددت طالما أن كلاً منها تغلق بابها وتحيط نفسها بسياج من الأوهام يمنعها من التعاون والتشاور وتبادل النصيحة مع الآخرين ، وتخدر نفسها بدعوى مظنونة أنها هي وحدها على الحق وهي وحدها الفرقة الناجية والطائفة المنصورة وماعداها باطل وأن نصر الله لها وحدها آت ...

... الى جميع المسلمين من أهل السنة والجماعة .. أفراداً .. وجماعات المتجردين من الأهواء .. أهدي لهم معالم الإنطلاقة الكبرى داعياً الله عز وجل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع وأن يهدينا إلى الحق ويجمعنا عليه ... آمين .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد وأن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . أما بعد

فإن النبي ﷺ رُوي عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد ، كالإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم أنه قال : « ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » . وفي رواية : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

ولقد تلقت الأمة هذا الحديث بالتصديق والقبول ، وعلم السلف والأئمة أن النبي ﷺ ينبه أمته ويفتح عقولها على سنة عامة من سنن الله في خلقه ، حدثت مع الأمم السابقة فهلكت بها ، إلا من كتب الله له النجاة . وأن هذه السنة العامة متحققة لا محالة في هذه الأمة أيضا ، إلا من رحم الله ، فهداه إلى التمسك بهدي رسوله ﷺ وهدي صحابته رضوان الله عليهم .

يقول ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . وفي لفظ : « على ثلاث وسبعين ملة » . وفي رواية قالوا : يا رسول الله ، من الفرقة الناجية ؟ قال « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . وفي رواية قال : « هي الجماعة ، يد الله على الجماعة »[1].

ولقد صدق رسول الله ﷺ ، وتحققت سنة الله في خلقه ، اذ افترقت الأمة بعد رسولها من بعد ماجاءهم العلم بغيًا بينهم — فتجاذبت الناس الأهواء والاختلافات ، وتعددت المذاهب والرايات ، وتشعبت البدع والنظريات ، وفارق الناس كتاب ربهم وسنة نبيهم ، فضلوا عن سبيل الصراط المستقيم ، وضربوا في تيه السبل ، وقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتبعوا سبيل كل ناعق .

ولكن خلال ذلك كله — وتحقيقا لسنة الله التي أخبرنا عنها رسوله الأمين ﷺ — ظلت راية الفرقة الناجية عالية خفاقة تجمع تحتها كل من أراد لنفسه النجاة ، وأراد له ربه أن ينأى بنفسه بعيدا عن كل تلك الرايات الضالة المضلة ، فيتمسك بالجماعة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار رضوان الله عليهم ، وتابعيهم بإحسان، ومن سار على دربهم وتمسك بهديهم ممن جاء بعدهم .

ولقد ضربت هذه الجماعة الظاهرة والفرقة الناجية بجذورها في أعماق الزمان والمكان، فأثمرت شجرتها المباركة كل خير عرفته هذه الأمة على مدار تاريخها الطويل ، وعلى امتداد أرضها شرقا وغربا . فلقد تربى في ظل هذه الراية كل الأئمة الأعلام وسلف الأمة الأخيار الذين حافظوا على تراث هذه الجماعة وأضافوا إليه عصارة فكرهم وقلوبهم بل وحياتهم ، وجاهدوا في سبيل نقله لمن بعدهم نقيا صافيا واضحا جليا ، كما تلقوه هم عمن قبلهم وتميزت هذه الجماعة بمنهجها وعلومها وفقهها الخاص بها ، كما تميزت بسلوكها وأخلاقها ، بل وتميزت برجالها الأعلام الذين حملوا منهج هذه الجماعة وعلمها وسلوكها ، وساروا به بين الناس ، يلتزمون به ، ويصبرون عليه ، ويدعون إليه ،

(1) يقول ابن تيمية : (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد ، كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم. راجع مجموع فتاوي شيخ الاسلام ج ٣ ص ٣٤٥ .

ويجاهدون دفاعًا عنه ويرفعون رايته ، ويحفظونه في كتبهم للأجيال التي تجيء بعدهم وتلتزم بمنهجهم وتسير على دربهم .

ولما تميز كل زمان ومكان بظروفٍ خاصة به ، وملابسات وفتن وابتلاءات تخالف ماعداه من أماكن وأزمنة أخرى ، فقد كان الناس في كل زمان ومكان يلجأون أمام هذه المحن إلى تراث ورجال هذه الجماعة يطلبون منهم الجواب ويبحثون عندهم عن النجاة والخلاص ، فقد كانت الراية واضحة والسبيل إليها سهلا ممهدا . ولكن الفتن اشتدت والمحن تلاحقت والابتلاءات تداعت والرايات تداخلت والسبل تشابكت ، وأصبح الناس في حيرة من أمرهم ، فقد اختلط الحق بالباطل والتبست السنة بالبدعة، وزعمت كل طائفة لنفسها النجاة والتمسك بالصراط المستقيم . ومع قلة العلماء الأعلام وشراسة الحرب التي يشنها أعداء هذا الدين من الكفرة والزنادقة ، صار تمييز سبيل النجاة وتمييز أهله أمرا صعبا على كثير من المسلمين الصادقين الباحثين عن النجاة في خضم هذه التيارات المتلاطمة والرايات المتداخلة والطوائف المتنازعة .

وبالرغم من الجهود العلمية الجبارة التي قام بها علماء هذه الجماعة في تمييز سبيلهم وايضاح منهجهم ، إلا أن كل عصر له لغته الخاصة به ، وكل جيل له أسلوبه المميز الذي يتلمس به طريقه إلى الحق ، والذي يصبغ إلى حد كبير أسلوب كل طائفة تعيش هذا العصر في عرض منهجها والتعريف به والدعوة إليه . ولقد بحث كثير من الشباب المسلم المخلص من أبناء هذا العصر الذي نعيشه عن رسالة أو بحث علمي واضح ومكتوب بلغة واسلوب هذا العصر ينير له طريقه أثناء بحثه عن سبيل هذه الجماعة أو الفرقة الناجية ، فلم يجد . إذ بالرغم من جهود الأئمة الأعلام في هذا المجال إلا أن عصارة هذه الجهود مازالت متناثرة في بطون كتب التراث تنتظر بحثا جادا أو رسالة علمية تجمع هذه الجهود القيمة في دراسة متكاملة تقدم إلى أبناء هذا العصر بلغتهم وأسلوبهم بحيث يتخذون منها معيارا واضحا ممثلا لحقيقة منهاج هذه الفرقة الناجية ، يقيسون عليه حياتهم وحياة الناس من حولهم .

وههنا أمر هام جدير بالايضاح والقاء الضوء عليه ببعض التفصيل ؛ وهو أن كلامنا هنا ليس منصبا — وكما قد يبدو للبعض وللوهلة الأولى — على جانب واحد أو قطاع محدد أو محدود من (أصول) أهل السنة والجماعة — كجانب العقائد مثلا — وانما نقصد بكلامنا هنا ما هو أشمل وأوسع من ذلك بكثير

إن جانب العقائد ــ على أولويته وأهميته ــ لا يمثل أولا وآخرا إلا بندا واحدا أو جانبا منفردا من البنود أو الجوانب المتعددة التي تضمها (أصول) هذه الطائفة الناجية .

إن تعبير (أصول) أهل السنة والجماعة قد تقلص ــ وللأسف الشديد ــ أمام عوامل كثيرة تاريخية وسياسية واجتماعية مختلفة ، لكي يصبح معبرا في النهاية ــ عند الكثيرين ولأول وهلة ــ عن جانب وحيد من الجوانب المتعددة والغنية لهذه الأصول. وهو جانب العقائد فقط بينما طغت أتربة الأهمال والنسيان ــ بل والتناسي في أحيان كثيرة على غير ذلك من (أصول) لا تقل أهميتها في ميزان الحق وفي معيار النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة عن أهمية (أصول) هذه الطائفة في جانب العقائد وحده ! إننا لاننكر أن جانب العقائد ــ وكما يقرر الامام ابن رجب ــ خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة ــ ولكن هل هذا يبرر أن نغمط بقية (الأصول) حقها ونتناسى هذه الجوانب الأخرى المضيئة التي تمثل ــ مع جانب العقائد ــ المرتكزات الأصلية والأعمدة الراسخة الثابتة التى يقوم عليها دائما هذا البناء الشامخ الذي يجسد تراث هذه الطائفة على مدار تاريخها كله؟ إن (أصول) أي شيء ــ وكما تخبرنا مراجع اللغة ــ هي الأسس التي يقوم عليها هذا الشيء . فهل الأسس التي قام عليها تراث هذه الطائفة ــ أهل السنة والجماعة ــ هي الأصول العقائدية فقط؟ وهل الحضارة التي حققت خيري الدنيا والآخرة على مدى تاريخ هذا الدين كله قامت فقط على الأصول العقائدية؟ أين الأصول العلمية وضوابط المعرفة وحدود العقل ومجالاته عندهم؟ أين أصولهم في النظر والاستدلال ومناهج البحث والاستقراء؟ أين أصول فقه الواقع والحركة الإيجابية الواعية خلال هذا الواقع وحدود المصالح والمفاسد المعتبرة عندهم؟ أين أصولهم في النظر إلى المخالف والتي ينطلق منها منهج تعاملهم مع هذا المخالف؟ وأين الأصول التي تحكم علاقاتهم هم بعضهم مع بعض؟ ثم أين الأصول التي تحكم علاقاتهم مع عالم الأسباب من حولهم والعلل الكونية التي جعلها الله سننا مطردة صارمة مؤدية الى معلولاتها؟ أين؟ وأين؟ وأين؟

إننا عندما نتكلم عن غياب دراسة متكاملة عن (أصول) أهل السنة والجماعة إنما نعني بذلك مؤلفا منفردا يستخرج ويجمع بين دفتيه كل هذه الأصول في دراسة علمية شاملة وفي شكل أو نسق منهجي متكامل تكون الأصول العقائدية ممثلة فيه كأحد بنوده الأساسية وجوانبه الرئيسية بالطبع ولكنها ليست كل شيء فيه وإن كانت أبرز ملامحه، وهذه الدراسة هي التي نسأل الله أن ييسر لهذه الأمة من ينجزها .

إن الاقتصار على جانب العقائد فقط باعتبارها هي كل شيء في (أصول) أهل السنة والجماعة قد أوقع الكثير من الشباب المخلص ــ ومن حيث لايدري ــ في تناقضات حادة تتصادم مع (أصول) أخرى كثيرة لأهل السنة والجماعة تضبط سلوكهم وتحكم حركتهم أثناء تعاملهم مع واقع الأمور وحقائق الأشياء . إننا عندما نتكلم عن (أصول) أهل السنة والجماعة فانما نعني بذلك المناهج الشاملة والمتكاملة لهذه الطائفة والأصول المتعددة التي تنطلق منها ــ علما وعملا ، فكرا وسلوكا، عقيدة وشريعة ــ لكي تحقق من خلالها دين الله في أرضه ــ وليس فقط في نفوس أبنائها ــ وبالأسباب التي خلقها أو أمر بها الله سبحانه وتعالى طريقا الى ذلك . وهذا المعنى هو الذي نطلبه ونبحث عنه في بطون كتب التراث : مقياس ثابت وشامل يجمع (أصول) هذه الطائفة في جوانبها المختلفة ، ويضبط به المسلم منطلقاته الأساسية في جميع شئون حياته الدنيا خلال رحلة سعيه إلى ربه عز وجل .

لقد كان نتيجة غياب هذا المقياس الثابت والشامل عن ذهن كثير من الشباب المسلم والذي يتمكن به من الإجابة عن بعض التساؤلات المحددة التي طرحها عليهم هذا العصر، مثل من هم أهل السنة والجماعة؟ ومتى يكون المسلم فردا منهم ومتى يخرج عنهم؟ وهل كونه فردا منهم يضمن له النجاة بإطلاق؟ ومن هم المفارقون للجماعة؟ وهل هم هالكون جميعهم بأعيانهم؟ وما موقف أهل السنة والجماعة منهم؟ وكيف يعاملونهم؟ كان نتيجة غياب هذا المقياس الثابت والشامل عن ذهن هؤلاء الشباب ــ وليس غيابه في نفسه ــ أن وقع كثير من هؤلاء الشباب في طرفي نقيض : فبعضهم تميعت في ذهنه الحدود والفواصل بين أهل السنة وبين غيرهم ، فاعتقد ــ حالا إن لم يكن مقالا ــ أن الجميع ناجون، وأن الفرق المختلفة ماهي إلا اجتهادات متنوعة تؤدي إلى نتيجة واحدة، بل وشكك كثير منهم في حديث الفرق المذكور والبعض الآخر وضع حول نفسه حدودا وهمية ثم زعم أنها الحدود التي تميز أهل السنة عن غيرهم ، واعتقد أنه وحده وطائفته أو جماعته هم أهل السنة والطائفة المنصورة والفرقة الناجية ، وأن من عداهم هم أهل البدع والتفرق والاختلاف . وبين هؤلاء وأولئك وقف القطاع الأكبر من الشباب المسلم حائرا يبحث لنفسه عن إجابات واضحة محددة ومقاييس ثابتة مقررة يُقَوِّم بها الواقع المحيط به ويضبط بها أحكامه عليه ، ويميز بها بين الطوائف والتجمعات الموجودة ، ويعرف حقيقة العلاقة بينها وبين الفرقة الناجية أيا كانت الأسماء واللافتات التي تعرف بها نفسها أو يطلقها عليها الآخرون . وإننا نقرر ابتداء أن هذا الميزان ليس

إجتهادا منا ولامن غيرنا بل ولامن الصحابة الأبرار ، إنما هو لفظا ومعنى قد تلقوه وتلقيناه من بعدهم عن الله ورسوله ﷺ فصاغه — أي الميزان — الصحابة عملا وسلوكا وصاغه مَنْ بعدهم ممن سار على دربهم علما وقواعد مكتوبة ولكنها كما أسلفنا متناثرة في بطون كتبهم — أي كتب أهل السنة والجماعة — فما كان منا إلا أن جمعنا هذا المنثور على قدر علمنا وجهدنا ويبقى الباب مفتوحا أمام أبحاث أشمل وأوسع .

ولقد بحثنا في المكتبة الإسلامية عن بحث متكامل يغطي هذا الموضوع ولكننا للأسف الشديد لم نعثر عليه . بل حتى الرسائل الجامعية على كثرتها وتنوعها لم يبحث أي منها هذا الموضوع بحثا شاملا من جوانبه المختلفة النظرية والعملية بما يشفي صدور الشباب المسلم المتعطش لهذا الأمر . إذ أننا لم نجد إلا أبحاثا جزئية تتناول إما تحقيق أحد كتب العقائد عند أهل السنة ، أو حياة أحد أئمة السنة أو الحديث . ولقد اتجهنا نتيجة لذلك لنبحث في كتب التراث نفسها فلم نجد — في حدود علمنا وبحثنا — ما يحقق مانصبو إليه من تغطية شاملة للموضوع إلا من خلال كتابات شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه . ولما كان مجموع فتاوي شيخ الإسلام من أشمل كتبه وأكثرها تنوعا من حيث ما تناوله فيه من موضوعات ، وهو في الوقت نفسه من أكثر كتبه تداولا بين الشباب المسلم ؛ مع سهولة لغته ووضوح عرضه ، أضف الى ذلك غزارة المعلومات والعمق العلمي الذي يتميز به فكر شيخ الإسلام ، كل ذلك جعلنا نركز بحثنا في هذه الموسوعة الضخمة نحاول أن نستخرج منها الخطوط العامة والملامح الرئيسية التي تشكل إجابات محددة لكل التساؤلات المطروحة أو لمعظمها ، لعلنا بذلك نفتح الطريق أمام بحث أكثر تكاملا سواء من ناحية التفصيل العلمي الدقيق ، أو من ناحية منهج البحث للموضوع ذاته .

ولعل شخصا يسأل : ولماذا كتابات شيخ الإسلام بالذات ؟ ولقد أجبنا عن جانب من هذا السؤال ؛ وهو أننا لم نجد — في حدود علمنا وبحثنا — من تناول هذا الموضوع بالعمق والشمول والتفصيل الذي تناوله به شيخ الإسلام . والجانب الآخر هو أن الإمام ابن تيمية رحمه الله واحد من الأئمة الأعلام الذين لا خلاف بين المسلمين المنتسبين للسنة على اختلاف مذاهبهم وتياراتهم ، على أنه يمثل أحد المرتكزات الشامخة علما وعملا على مدار تاريخ أهل السنة كله . فقد اطلع رحمه الله على علم وفضل الأئمة السابقين، فحفظه وتمثله بوعي وفهم دقيقين ، واجتهد في تفسيره وشرحه وتفصيله ، حتى بلغ

في ذلك مبلغا عظيما . ولعلنا لا نغالي أو نبالغ إذا قررنا أن أغلب ماقرأناه من تراث الأئمة اللاحقين عليه — في هذا المجال — كان عالة عليه ونقولا عنه أو إعادة عرض لشروحه وتفسيراته . وأيضا فإن الحياة العريضة التي عاشها هذا الإمام ، والفتن والملاحم التي خاضها فكرا وسلوكا وعلما وعملا ، والمحن التي عاشها أهل السنة في عصره، وصبغت اجتهاداته وفتاواه قد أعطت لها عمقا خاصا لنا نحن أبناء هذا العصر ، كما إننا توخينا أثناء بحثنا أن ننقل عنه ما صرح هو أنه يمثل أهل السنة والجماعة ككل ، لا أنه يمثل فتوى أو إجتهاد خاص به قد يخالفه فيه غيره .

ولقد قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب وخاتمة غير هذا التمهيد أو المقدمة :

ففي الباب الأول: استعرضنا التاريخ العام لمسيرة أهل الحق، وسنة الله الكونية في خروج البشر عن الصراط المستقيم . وقدمنا بعض التعريفات الهامة لهذا البحث ، مثل تعريف: السنة والجماعة وأهل الحديث والسلف والطائفة المنصورة . كما تكلمنا عن نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة . ولم نقتصر في هذا الباب على ما كتبه ابن تيمية ، بل جمعنا مادته من مصادر أخرى كما هو موضح في هوامش الباب .

وأما الباب الثاني: فقد أفردناه لنصوص شيخ الإسلام المنقولة من مجموع الفتاوي (طبعة الرياض أو مصورتها) . وقسمنا الباب إلى عدة فصول يجمع كل منها موضوعا واحدا، مثل : منهجهم — أي أهل السنة والجماعة — في التلقي ، وعقائدهم المتفق عليها بينهم ، وموقفهم النظري أو العملي تجاه المخالفين لهم . وحاولنا أن نربط بين فقرات كل فصل بما يوضح الفكرة المعروضة ويخدم تسلسل الأفكار . فكنا أحيانا نبدأ الفصل أو نربط بين بعض الفقرات بكلام قليل يوضح الفكرة أو الأفكار الواردة بالفقرات ولا يوضع لهذا الكلام علامة تنصيص وذلك حتى يستطيع القارىء أن يميز بينه وبين كلام ابن تيمية . وأما الفقرات المنقولة من كلام شيخ الإسلام فقد وضعت بين قوسين (.....) هكذا . وإذا كان هناك شيء محذوف من الكلام وضع ثلاث نقاط علامة الحذف ... ، ثم نذكر في نهاية كل فقرة رقم الجزء والصفحة من مجموع الفتاوي .

وفي الباب الثالث : استعرضنا بشكل عام نتائج البحث وركزنا على المراحل التي يمكن أن تمر بها جماعة أهل السنة والجماعة في الظروف المختلفة . ثم نظرنا إلى الواقع الإسلامي المعاصر نظرة عامة وذلك على ضوء النتائج النظرية للبحث .

وأخيراً ختمنا البحث بمحاولة للإجابة عن السؤال الذي يواجه أهل السنة والجماعة وهو : ما العمل الآن تجاه هذا الواقع المحيط بهم ؟ وماهو المطلوب منهم تجاه هذا الواقع ؟ وكيف ومن أين يبدأون ؟ .

نسأل الله التوفيق والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد .

اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنا لما أختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراطك المستقيم .

الباب الأول

وهو استعراض تاريخي عام لمسيرة أهل الحق ، وسنة الله الكونية في خروج البشر عن الصراط المستقيم ، مع تعريفات هامة في التمهيد للبحث ، ونبذة عن بداية الفتن ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

وهو يحتوي على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تاريخ انحراف الخلق عن الحق .
الفصل الثاني : تعريفات ضرورية .
الفصل الثالث : نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

الفصل الأول
تاريخ انحراف الخلق عن الحق

الأمانة التي حملها الانسان :

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الحياة من أجل غاية محددة ، ووظيفة معينة ومهمة مقررة ، وسخر له ما في الأرض جميعا من بحار وأنهار ، ورياح وأمطار، وجبال ووديان ، وحيوان ونبات ، إلى سائر مخلوقات الله عز وجل في أرضه . بل وألهمه الكشف عن بعض قوانين الطبيعة ونواميس الحياة ، كيمايصبح الإنسان أهلا لهذه الغاية الهامة التي من أجلها خلقه الله تعالى ، فالغاية عظيمة ، والمهمة شاقة ، والأمانة ثقيلة ، حتى لقد أشفقت منها السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها . قال تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾[1].

إن هذه الغاية العظيمة والمهمة الشاقة ، والأمانة الثقيلة التي حملها الإنسان وانفرد بها دون سائر المخلوقات والكائنات هي خلافة الله في أرضه . إن رب الأرباب وملك الملوك وجبار السموات والأرض قد خلق الإنسان من أجل أن يستخلفه في أرضه ، ويجعله مسئولا أمامه عما جعله مستخلفا فيه .

يقول الله عز وجل مخبرا الملائكة عن المهمة التي من أجلها خلق الإنسان ، ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[2]

---

(١) الأحزاب آية ٧٢ . يقول ابن عباس (الأمانة هي الطاعة) ويقول ابن كثير (إنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب) . أ هـ . راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٧ ط الشعب .

(٢) البقرة آية ٣٠

يقول الإمام الطبري (إني جاعل في الأرض خليفة مني ، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ، ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه)[1] أ هـ .

ويقول ابن كثير (فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبي)[2] أ هـ

ثم يقول (وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[3] أ هـ.

خلافة الانسان في الأرض وشروطها:

ولما كانت خلافة الإنسان في الأرض مشروطة بشرطها ، وهو الالتزام بطاعة الرب والملك وصاحب الأمر والنهي ، من تحقيق أوامره طمعا في ثوابه واجتناب نواهيه خوفا من عقابه ، كل ذلك في إطار من التوقير والمحبة والتعظيم ، كانت قضية خلافة الإنسان في الأرض هي نفسها قضية عبادة الإنسان لله القاهر فوق عباده. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلى ليعبدون ﴾[4].

يقول ابن تيمية (فيُعبد في كل زمان ، بما أمر به في ذلك الزمان)[5] أ هـ.

ويقول ابن كثير : (ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب)[6] أ هـ.

ميثاق الفطرة:

ولما علم الله عز وجل عظم الأمانة وثقل التكليف الذي حمله الإنسان ، ذلك المخلوق

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٠ دار المعرفة .
(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٦٩ دار المعرفة .
(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٧٢ دار المعرفة .
(٤) الذاريات آية ٥٦ .
(٥) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٤١ .
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٧ .

الضعيف المفتقر بذاته إلى ربه وخالقه — ولما كان الله الحكيم الخبير لا يكلف نفسا إلا وسعها ، فقد خلق الله الإنسان مفطورا بطبعه على معرفة ربه ، وتوحيده ، والتزام طاعته وعبادته وحده لا شريك له ، فلا يتلقى إلا منه ولا يتوجه إلا إليه .

قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي »[2].

من رحمة الله أن لايعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة الرسالية :

وبالرغم من قيام الحجة وانقطاع العذر ، شاء الله العليم الخبير بحكمته البالغة — رحمة منه وفضلا — أن لا يؤاخذ بني آدم بمقتضى ميثاق الفطرة وحده . وأن لا يعذب أحدا إلا بعد أن يقيم عليه الحجة الرسالية . قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[3]. فبعث الله رسله تترى ، تذكر الناس بميثاقهم الأول مع ربهم وخالقهم ، وبالأمانة الكبرى التي حملهم إياها في أرضه ، وتأمرهم أن يلتزموا بمقتضى استخلاف الله لهم في هذه الحياة ، وتقطع عليهم آخر الأعذار التي يمكن أن يجادل بها بنو آدم ربهم ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[4].

(١) الأعراف آية ١٧٢-١٧٤ .
(٢) أخرجاه في الصحيحين — جاء عن ابن عباس فيما رواه ابن جرير أن الله أخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وجاء عن ابي بن كعب فيما رواه عنه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه أن الله عز وجل قال لهم : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم ، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا . وإني سأرسل إليكم رسلا ليذكروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي . قالوا ، نشهد أنك ربنا وإلهنا ، ولا رب لنا غيرك . فأقروا له يومئذ بالطاعة .
راجع نصوص هذه الروايات بتمامها في الجزء الأول من معارج القبول ص ٣٤ وبعدها .
(٣) الإسراء آية ١٥
(٤) النساء آية ١٦٥

يقول الإمام ابن القيم (فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه من العيوب والنقائص ، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها . وكذلك في الفطرة الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها وجزاؤها بكسبها في غير هذه الدار ، وأما تفصيل ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا تعلم إلا بالرسل . فالرسل تذكر بما في الفطر وتفصله وتبينه ، ولهذا كان العقل الصريح موافقا للنقل الصحيح ، والشرعة مطابقة للفطرة يتصادقان ولا يتعارضان) أ هـ[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (وأيضا فالاستغفار والتوبة مما فعله وتركه في حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيح من السيئات ، وقبل أن يرسل إليه رسول ، وقبل أن تقوم عليه الحجة ، فإنه سبحانه قال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ... وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئا وقبيحا وشرا ، ولكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول هذا قول الجمهور ...

والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئا قبيحا ، وكان شرا . لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول)[2] أ هـ.

وهكذا لم يترك الله عز وجل بني آدم في هذه الحياة لأنفسهم ، بل أحاطهم دائما بمنهاج النبوة ونورها من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وجعل الرسالات مع رصيد العقل والفطرة وتفاعلها مع آيات الله المبثوثة في الكون تشكل المنارات التي تهدي بنى آدم في رحلة سعيهم إلى ربهم ، والتي تردهم — من شرد منهم — إلى صراط الله المستقيم .

ولكن الناس اختلفوا على رسلهم ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾[3]، وآمن من آمن — وهم قليل — فكانت تلك هي سنة الله في خلقه ﴿ وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[4]. ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[5].

---

(١) شفاء العليل ص ٣٠١-٣٠٢

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ج ١١ ص ٦٧٥ وبعدها .

(٣) الإسراء آية ٨٩ .

(٤) الانعام آية ١١٦

(٥) الاحزاب آية ٦٢ .

قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1].

يقول ابن كثير : (عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين...

وعن قتادة قال : كانوا على هدى جميعا فاختلفوا ، فبعث الله النبيين ، فكان أول من بعث نوحا . وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا .. لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال الله تعالى ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾ أي بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ... ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم)[2]. أ هـ .

فساد الفطرة :

ولما فسدت فطرة أكثر البشر ، ولما ﴿ كان الانسان أكثر شيء جدلا ﴾[3]، زين الشيطان للناس سوء عملهم ، ولبس عليهم الحق بالباطل : وألهمهم المقدمات الفاسدة حتى يجادلوا بها عن باطلهم وينافحوا عنه ، ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا

---

(١) البقرة آية ٥٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٥٠ .

(٣) الكهف آية ٥٤ .

به الحق ﴾[1]فما أعجب ابن آدم حين تفسد فطرته ، وتظلم بصيرته ، ويضل عقله ، فيرى الباطل حقا ، ويرى الحق باطلا ، أو يزيغ عنه أصلا فلا يراه ، ولكن صدق الحكيم الخبير ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[2]. ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[3].

واختلف أهل الكفر فيما بينهم ، وانقسموا الى فرق وأحزاب ، وشيع وجماعات وتفاوتوا في دركات الكفر والضلال والتيه والبعد عن الصراط المستقيم ، فمنهم من أنكر الخالق ، ومنهم من أنكر الوحدانية ومنهم من أنكر النبوات ومنهم من أنكر البعث والمعاد ، الى آخر هذه المقالات الفاسدة التي يلقي بها الشيطان الى أوليائه[4].

يقول ابن حزم : (رؤوس الفرق المخالفة لدين الإسلام ست ، ثم تفرقت كل فرقة من هذه الفرق الست على فرق ، وسأذكر جماهيرها إن شاء الله عز وجل ، فالفرق الست التي ذكرناها على مراتبها في البعد عنا :

(أولها) مبطلوا الحقائق ، وهم الذين يسميهم المتكلمون السوفسطائية .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، إلا أنهم قالوا : إن العالم لم يزل وإنه لا مُحْدِث له ولا مُدَبِّر .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق وإن العالم لم يزل وإن له مدبرا لم يزل .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، فبعضهم قال : إن العالم لم يزل ، وبعضهم قال : هو محدث : واتفقوا على أن له مدبرين لم يزالوا ، وانهم أكثر من واحد ، واختلفوا في عددهم .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، وإن العالم محدث ، وإن له خالقا واحدا لم يزل وأبطلوا النبوات كلها .

(ثم) القائلون بإثبات الحقائق ، وإن العالم محدث ، وإن له خالقا واحدا لم يزل

(١) الكهف آية ٤ .
(٢) إبراهيم آية ٤ .
(٣) الكهف آية ١٧ .
(٤) يقول ابن القيم في قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ يقول : (ومن أسرارها أن اثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل ، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب ... فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه وبعث المعاد ليوم يجزي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، أ هـ راجع التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ١٦١-١٦٢ .

وأثبتوا النبوات ، إلا أنهم خالفوا في بعضها ، فأقروا ببعض الأنبياء عليهم السلام وأنكروا بعضهم ...)[1]هـ .

هذا عن أهل الملل المخالفة لدين الإسلام . وأما عن أهل الملة الإسلامية فإن الله عز وجل لما بعث في كل أمة رسولا ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[2] فإن كل رسول كان يدعو قومه إلى دين الله الذي هو الإسلام .

أي الإستسلام له سبحانه وتعالى وحده — ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[3]، والذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[4].

يقول ابن تيمية : (كان الأنبياء جميعا مبعوثين بدين الإسلام ، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين)[5] أ هـ . ويقول : (وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقاطعة بأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية ، وهي الإسلام العام : عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر)[6] أ هـ .

ويقول رحمه الله : (وقوله تعالى ﴿ أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أمر مع القسط بالتوحيد ، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهذا أصل الدين ، وضده الذنب الذي لا يغفر . قال الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم .. وهو الإسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين ... وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل ، وضده وهو الشرك أعظم الظلم)[7] أ هـ .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٣ .
(٢) النحل آية ٣٦ .
(٣) آل عمران آية ١٩ .
(٤) آل عمران آية ٨٥ .
(٥) العبودية ص ٣٤ .
(٦) الفتاوى الكبرى ج ١ ص ٣٣٥ .
(٧) الفتاوى الكبرى ج ١ ص ٣٤٨ .

ويقول (ودين الله الذي هو الإسلام مبني على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله)[1] .

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[2] .

يقول : (هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد ... وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ... والدين الذي لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله تعالى الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام)[3] أ هـ .

وكان أتباع كل رسول من المؤمنين به يصاحبون رسولهم في حياته ، فيعايشونه ويتعلمون منه ويتلقون عنه ويقتدون به ، ويحفظون عنه كتاب ربه إليه وآثاره وسنته ، ويسألونه عما يشكل عليهم من أمور ، ويستفتونه مباشرة في كل ما يمس أمور معاشهم ومعادهم .

حتى إذا ما مات الرسول ، وطال الأمد على قومه من بعده ، تبددت الأصحاب ، وتجددت الأجيال ، فضعفت الهمم ، وغلبت الشهوات ، وأفرخت الشبهات ، وقست القلوب ، وقل الاقتداء ، وغابت السنن ، وغلبت البدع ، واختلط الحق بالباطل ، وتداخلت الكتب الربانية والآثار النبوية بالفلسفات الوثنية ؛ والأوليات العقلية بالمقدمات المنطقية . وبعد أن كان الناس أمة واحدة على الحق اختلفوا وتفرقوا . ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾[4]. ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[5]. ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[6]. ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيدا ﴾[7].

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٦٢ .
(٢) المائدة آية ٤٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٦ .
(٤) يونس آية ١٩ .
(٥) الجاثية آية ١٧ .
(٦) المؤمنون آية ٥٣ .
(٧) البقرة آية ١٧٦ .

وبقدر ما ابتعد الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ، بقدر ما أوغلوا في مجاهل الهوى ومفاسد العقليات ، وبقدر ما ضلوا عن صراط الله المستقيم ، فكذبوا بالحق ـــ أو ببعضه ـــ من بعد ماعقلوه ، وقدموا بين يدي الله ورسوله ، فضلت الأجيال جيلا بعد جيل، واختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

يقول ابن تيمية : (فمن خرج عن النبوات وقع في الشرك وغيره ، ... ولم يكن الشرك أصلا في الآدميين بل كان آدم ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله ، لاتباعهم النبوة ، قال تعالى ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ .
قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فبتركهم اتباع شريعة الأنبياء وقعوا في الشرك)[1] أ هـ .

خاتم الانبياء والمرسلين ﷺ

ثم أراد الله أن يهدي الناس بعد طول ضلال ، وأن يظهرهم على الحق بعد طول إختلاف ، فكانت ـــ أن شاءت ـــ إرادة العليم الحكيم أن يختم رسالاته إلى البشر كافة برسالة النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، فأنزل عليه القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾[2].

وتعهد الله عز وجل بحفظ هذا الدين ـــ بحفظ كتابه ـــ إلى يوم تقبض السموات والأرض ، فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[3]. يقول ابن كثير : (قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر ـــ وهو القرآن ـــ وهو الحافظ له من التغيير والتبديل)[4] أ هـ .

وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ أن يبين للناس بسنته الشريفة تفصيلات هذا الذكر الحكيم . ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[5].

(١) مجموع الفتاوى ج٢٠ ص١٠٦ وبعدها .
(٢) البقرة آية ٢١٣ .
(٣) الحجر آية ٩ .
(٤) مختصر ابن كثير ج٢ ص٣٠٨ .
(٥) النحل آية ٤٤ .

يقول ابن كثير (وأنزلنا إليك الذكر : يعني القرآن ، لتبين للناس ما نزل إليهم : أي من ربهم ، لعلمك ، بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم ، فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين لهم ما أشكل)[1] أ هـ .

فبلغ ﷺ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وأزال الغمة ، وفتح الله به ﷺ قلوبا غلفا وآذانا صما . ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[2]. نعم ، فمن ذا الذي يبلغ إن لم يبلغ رسول الله ﷺ إلى خلقه ، ومن ذا الذي يبين إن لم يبين من أرسله الله رحمة للعالمين ؟ .

يقول ابن كثير : (يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمد ﷺ باسم الرسالة وآمرا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام ... وقد شهدت له أمته بابلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع اصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ، ويقول : « اللهم هل بلغت ؟ »)[3] أ هـ .

ولم يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ترك قومه مجتمعين على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، وإلا بعد أن أنزل الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[4].
وقال ﷺ « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ »[5].

يقول ابن كثير (هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا

(١) مختصر ابن كثير ج٢ ص٣٣٢ .
(٢) المائدة آية ٦٧
(٣) مختصر ابن كثير ج١ ص٥٣٣ .
(٤) المائدة آية ٣ .
(٥) رواه مالك .

جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن....)[1] أ هـ .

أمر الله المسلمين بالجماعة ونهاهم عن الفرقة

وبالرغم من أن الله عز وجل قد أمر أهل هذه الملة بالتجمع على هذا الحق ، وحذرهم من التفرق والاختلاف كما حدث للأمم السابقة ، فقال تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾[2]. وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾[3]. وقال تعالى ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[4].

يقول ابن كثير : (وقوله تعالى : ولا تفرقوا: أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق ، والأمر بالاجتماع والائتلاف .. وقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة : وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة)[5] أ هـ .

ويقول ابن كثير في آية : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ ... قوله ﴿ وكانوا شيعا ﴾ قال هم الخوارج ، وقيل : هم أصحاب البدع ، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وكانوا شيعا ﴾ أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ...)[6] أ هـ .

افتراق الامة إلى ملل كلها في النار إلا واحدة

وبالرغم من ذلك كله أبى أكثر الناس إلا أن يختلفوا ويتفرقوا — إلا من رحم ربك —

(١) مختصر ابن كثير ج١ ص٤٨٢ .
(٢) آل عمران آية ١٠٣ .
(٣) آل عمران آية ١٠٥ .
(٤) الأنعام آية ١٥٩.
(٥) مختصر ابن كثير ج١ ص٣٠٥-٣٠٧ .
(٦) مختصر ابن كثير ج٢ ص٦٣٧-٦٣٨ .

فتنازعوا أمرهم بينهم وغدوا شيعا وأحزابا ، وجعلوا القرآن عضين* فضربوا بعضه ببعض واختلفوا على الحق من بعد ما جاءهم العلم والبينات بغيا بينهم . فحق فيهم قول الله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾(1)، وقول رسوله ﷺ : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعني الأهواء — كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة »(2). وفي رواية : قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »(3).

وقال قتادة : (أهل رحمة الله : أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل الفرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم)(4) أ هـ .

وهكذا لم يلبث الناس أن فارقوا هدي ربهم سبحانه وتعالى وسنة نبيهم ﷺ ، فتجارت بهم الأهواء وتجاذبتهم الاختلافات ، وقدموا بين يدي الله ورسوله آراء الرجال ، وضلالات الفلاسفة ، وترهات المتكلمين ، فضلوا وأضلوا عن سبيل الله وصراطه المستقيم ، ولبس عليهم الشيطان أمر دينهم . وصدق الله العظيم ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾(5).

يقول ابن كثير : (..إن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى و غيرهم لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مُرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطىء وعمله مردود)(6) أ هـ .

* (يقول ابن كثير قوله ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أي جزأوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال البخاري عن ابن عباس : ﴿ جعلوا القرآن عضين ﴾ قال : هم أصحاب الكتاب جزأوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه) أ هـ راجع مختصر ابن كثير ج٢ ص٣١٩ .

(1) هود آية ١١٩ .
(2) أبو داود وصححه الألباني في هذه الرواية في تعليقه على شرح الطحاوية ص٥٧٨ المكتب الاسلامي .
(3) رواية الترمذي .
(4) مختصر ابن كثير ج٢ ص٢٣٦ .
(5) الكهف آية ١٠٣-١٠٤ .
(6) مختصر ابن كثير ج٢ ص٤٣٨ .

وصدق رسول الله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »(1)

راية السنة ظاهرة متميزة في كل عصر وجيل :

ولكن الله شاء — وسط هذا الخضم من التفرق والاختلاف — أن يقيّض لدينه الحق من يحقق إرادة الله السابقة بحفظ هذا الدين فيقوم به بعد رسول الله ﷺ خير القيام . فكانوا بحق ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾(2) إذ قام صحابة رسول الله ﷺ بهذا الأمر خير قيام ، وأدوا الأمانة التي حملهم إياها ربهم عز وجل خير الأداء ، ونقلوها لمن بعدهم من التابعين كاملة وغير منقوصة . وكان التابعون من بعدهم خير خلف لخير سلف فحملوا هم بدورهم أمانة هذا الدين لمن بعدهم من أئمة السنة ومن سار على دربهم واهتدى بهديهم غير مبالين بمخالفة المخالفين وبتخذيل المخذلين من أهل الأهواء والبدع والضلالات ، فتمسكوا بهدي نبيهم ﷺ وسنته وآثاره ، فالتزموا بها وحفظوها ولقنوها لمن بعدهم .

وهكذا تسلم أهل السنة والحق في كل قرن راية السنة وآثار النبوة ممن كان قبلهم من أهل الحق ، وسلموها بدورهم لمن جاء بعدهم مقتديا بهم ومهتديا بهديهم من أبناء الأجيال اللاحقة حتى غدت راية السنة ظاهرة ومتميزة في كل عصر وجيل ، يحملها أفراد هذه الطائفة المنصورة عالية خفاقة ، نقية طاهرة ، حافظين إياها لمن بعدهم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . يقول رسول الله ﷺ « لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »(3).

وعلى مر العصور وتلاحق الأجيال ، ترسخت أصول وقواعد هذه الطائفة الناجية ، وتحددت مناهجها ، وتميزت منابع فكرها ومناهل علومها ، ودونت عقائدها وتميزت عن غيرها من عقائد وأصول ما عداها من الفرق الأخرى فكانت هذه الطائفة بين سائر فرق الملة ، كالملة الإسلامية بين سائر الملل الأخرى(4). وتميز أهلها عن غيرهم

(1) رواه البخاري .
(2) الأحزاب آية ٢٣ .
(3) رواه البخاري .
(4) يقول ابن تيمية في الفتاوى ج ٤ ص ١٤٠ : ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه =

سواء في عقائدهم وفقههم أم في أخلاقهم وسلوكهم ، فكانوا خير شاهد لهذا الدين ، وأقام الله بهم الحجة على عباده في كل عصر وجيل ، ولازال أئمة الهدى منهم شموسا ساطعة تضيء الطريق لكل من أراد الله له الخير والهداية في اقتفاء آثار رسول الله ﷺ ، والاهتداء بهديه ، والاستنان بسنته .

فضل صحابة رسول الله الكرام

وكان أصل الأصول الذي ميز هذه الطائفة على مر العصور هو تمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم وإجماع سلفهم من الصحابة والتابعين أئمة القرون الثلاثة الأولى المباركة فكان في ذلك العاصم من التفرق والاختلاف وتضارب العقول والأهواء . فمن غير صحابة رسول الله ﷺ أفقه لكتاب ربهم وأعلم بسنة نبيهم ﷺ ؟! .

يقول شارح الدرة المضيئة : (وليس في الأمة المحمدية المفضلة على سائر الأمم كالصحابة الكرام الذين فازوا بصحبة خير الأنام ، فمعتمد القول عن أئمة السنة أن الصحابة كلهم عدول . قال تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ الآية . فليس في الأمة المحمدية مثل الصحابة الكرام في الفضل بشاهد ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ماأدرك مد أحدهم ولا نصيفه » وأخرج الترمذي من حديث ابن مغفل رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يبلغ الحاضر الغائب ، الله الله في أصحابي ، لاتتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه ، ومن يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته » .

وليس في الأمة كالصحابة الكرام في المعروف وهو إسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله تعالى ، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات . ولا يرتاب أحد من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حاذوا قصبات السبق ، واستولوا على معالي الأمور من الفضل والمعروف والصدق . فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم واقتفى منهجهم القويم . والتعيس من عدل عن طريقهم ، ولم يتحقق بتحقيقهم .

= فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم ، كما قال بعض السلف : (أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل) أ هـ .

فأي خطة رشد لم يستولوا عليها وأي خصلة خير لم يسبقوا إليها . تالله لقد وردوا ينبوع الحياة عذبا صافيا زلالا ، ووطدوا قواعد الدين والمعروف ، فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالا ، فتحوا القلوب بالقرآن والذكر والإيمان ، والقرى بالسيف والسنان وبذل النفوس النفيسة في مرضاة الرحمن . فلا معروف إلا ماعنهم عُرف ، ولا برهان إلا بعلومهم كشف ولا سبيل نجاة إلا ما سلكوه ، ولا خير وسعادة إلا ماحققوه . فرضوان الله تعالى عليهم ماتحلت المجالس بنشر ذكرهم ، وماتنمقت الطروس بعرف مدحهم وشكرهم .

وليس في الأمة كالصحابة في الإصابة للحكم المشروع والهدي المتبوع . فهم أحق الأمة في إصابة الحق والصواب ، وأجدر الخلق بموافقة السنة والكتاب ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من كان متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومهم هديا ، وأحسنهم حالا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه . فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

* قال المحقق[١] في إعلام الموقعين : فعلم بهذا أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أولى الأمة بالإصابة فيما ثبت عنهم ، فإنهم كانوا أبر قلوبا وأعمق علما ، وأقل تكلفا ، وأقرب إلى أن يوفقوا للصواب من غيرهم بما خصهم الله به من توقد الأذهان وفصاحة اللسان ، وسعة العلم ، وسهولة الأخذ ، وحسن الإدراك وسرعته ، وقلة المعارض أو عدمه ، وحسن القصد ، وتقوى الرب ، فالعربية طريقتهم وسليقتهم ، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم ، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل ، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين ، فقد أُغنوا عن ذلك كله ، فليس في حقهم إلا أمران : أحدهما : قال الله تعالى كذا وقال رسوله كذا ، والثاني معناه كذا وكذا ، وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين ، وأحظى الأمة بهما فقواهم متوفرة مجتمعة عليها . فإنهم — أي الصحابة الكرام — قد شاهدوا وصحبوا المختار وعاينوا في صحبتهم للنبي ﷺ الأسرار القرآنية وعلموا من الحضرة النبوية ، وعلموا التنزيل وأسبابه ، والتأويل وآدابه ، وعاينوا الأنوار القرآنية والأشعة

(١) يقصد بالمحقق الإمام ابن القيم رحمه الله .

المصطفوية ، فهم أسعد الأمة بإصابة الصواب وأجدرها بعلم فقه السنة والكتاب)[1] أ هـ .

ويقول الإمام ابن القيم : (وانما يحسن الاستدلال على معاني القرآن بما رواه الثقاة عن الرسول ﷺ ورثة الأنبياء ، ثم يتبعون ذلك بما قاله الصحابة والتابعون أئمة الهدى . وهل يخفى ذلك على ذي عقل سليم أن تفسير القرآن بهذا الطريق خير مما هو مأخوذ عن أئمة الضلال وشيوخ التجهم والإعتزال كالمريسي والجبائي والنظام والعلاف وأضرابهم من أهل التفرق والإختلاف الذين أحدثوا في الإسلام ضلالات وبدعا وفرقوا دينهم وكانوا شيعا وتقطعوا أمرهم بينهم كل حزب بما لديهم فرحون.

فإذا لم يجز تفسير القرآن وإثبات مادل عليه وحصول العلم اليقين بسنن رسول الله ﷺ الصحيحة الثابتة وكلام الصحابة وتابعيهم ، أفيجوز أن يرجع في معاني القرآن إلى تحريفات جهم وشيعته وتأويلات العلاف والنظام والجبائي والمريسي وعبد الجبار وأتباعهم من كل أعمى أعجمي القلب واللسان بعيد عن السنة والقرآن مغمور عند أهل العلم والإيمان ؟ ...)[2]

* **الصحابة الكرام أخذوا عن رسول الله ﷺ القرآن والسنة لفظا ومعنى :**

يقول الإمام ابن القيم : (إن النبي ﷺ بيّن لأصحابه القرآن لفظه ومعناه ، فبلغهم معانيه كما بلغهم ألفاظه ، ولا يحصل البيان والبلاغ المقصود إلا بذلك ، قال تعالى ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . وهذا يتضمن بلاغ المعنى وأنه في أعلى درجات البيان ، فمن قال إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغا مبينا ، بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ .

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به وشهدت به ملائكته وخيار القرون أنه بلغ البلاغ المبين القاطع للعذر المقيم للحجة الموجب للعلم واليقين لفظا ومعنى ، والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة كالجزم بتبليغه الألفاظ بل أعظم من ذلك ،

(١) مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٥٢٥ وبعدها بتصرف يسير (مختصر لوامع الأنوار البهية) للشيخ محمد بن سلوم . وهو مختصر كتاب محمد بن سالم السفاريني (لوامع الأنوار البهية) الذي هو شرح لكتابه (الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية) . طبعة المدني . وراجع أيضا شرح الطحاوية ص ٤٦٤ وبعدها وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » قال عمران أحد رواة الحديث : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . (الصحيحان) .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ج ٢ ص ٣٣٥ .

لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته ، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة .

* قال حبيب بن عبد الله البجلي وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا ، فالصحابة أخذوا عن رسول الله ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه بل كانت عنايتهم بأخذ المعاني أعظم من عنايتهم بالألفاظ . يأخذون المعاني أولا ثم يأخذون الألفاظ ليضبطوا بها المعاني حتى لا تشذ عنهم . فإذا كان الصحابة تلقوا عن نبيهم معاني القرآن كما تلقوا عنه ألفاظه لم يحتاجوا بعد ذلك إلى لغة أحد . فنقل معاني القرآن عنهم كنقل ألفاظه سواء .

* فاذا كان السابقون يعلمون أن هذا كتاب الله وكلامه الذي أنزله إليهم وهداهم به وأمرهم باتباعه فكيف لا يكونوا أحرص على فهمه ومعرفة معناه من جهة العادة العامة والعادة الخاصة ؟ ولم يكن للصحابة كتاب يدرسونه وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلا القرآن وما سمعوه من نبيهم ﷺ ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون إلا في ذلك . بل كان القرآن عندهم هو العلم الذي يعتنون به حفظا وفهما وعملا وتفقها ، وكانوا أحرص الناس على ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم وهو يعلم تأويله ويبلغهم إياه كما يبلغهم لفظه ، فمن الممتنع أن يكونوا يرجعون إلى غيره في ذلك ، ومن الممتنع أن لا تتحرك نفوسهم لمعرفته ، ومن الممتنع أن لا يعلمهم إياه وهم أحرص الناس على كل سبب ينال به العلم والهدى وهو أحرص الناس على تعليمهم وهدايتهم ، بل كان أحرص الناس على هداية الكفار .

* إن الصحابة قد سمعوا من النبي ﷺ من الأحاديث الكثيرة ورأوا منه من الأحوال المشاهدة وعلموا بقلوبهم من مقاصده ودعوته ما يوجب فهم ما أراد بكلامه ما يتعذر على مَنْ بعدهم مساواتهم فيه ، فليس من سمع وعلم ورأى حال المتكلم كمن كان غائبا لم ير ولم يسمع ، أو سمع وعلم بواسطة أو وسائط كثيرة . وإذا كان للصحابة من ذلك ماليس لمن بعدهم كان الرجوع إليهم في ذلك دون غيرهم متعينا قطعا . ولهذا قال الإمام أحمد : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ . ولهذا كان إعتقاد الفرقة الناجية هو ما كان عليه رسول ﷺ وأصحابه ، كما شهد لهم رسول الله ﷺ بذلك في قوله : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » فثبت بهذه الوجوه القاطعة عند أهل البصائر — وإن كانت دون الظنية عند عمى القلوب —

أن الرجوع إليهم في تفسير القرآن الذي هو تأويله الصحيح المبيّن لمراد الله هو الطريق المستقيم . ثم من المعلوم أن التابعين بإحسان أخذوا ذلك عن الصحابة وتلقوه منهم ولم يعدلوا عما بلغهم إياه الصحابة)[1] أ هـ .

أحاديث الإفتراق والطائفة التي على الحق ووجوب لزوم الجماعة :

وقد وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث تقرر إفتراق هذه الأمة من بعده على بضع وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة أو الفرقة الناجية التي على مثل ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

ووردت أحاديث أخرى تقرر أن هناك طائفة من أمته ﷺ لن تزال ظاهرة منصورة قائمة بأمر الله لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله وتقوم الساعة . ووردت أحاديث تأمر الناس بالإلتزام بالسنة وتوجب عليهم لزوم الجماعة ، وتنهاهم عن الشذوذ والفرقة .

وأخيرا هناك حديث حذيفة رضي الله عنه الذي بّوب له الإمام البخاري رحمه الله بقوله : (كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ؟) .

أولاً : روايات وطرق حديث (الافتراق) :

— عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على إحدى او أثنتى وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » (أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم وأحمد وغيرهم)[2].

عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة — يعني الأهواء — كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة . وأنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله . والله يا معشر العرب لئن

(١) مختصر الصواعق المرسلة ج ٢ ص ٣٣٥ وبعدها بتصرف .
(٢) صححه الترمذي والحاكم وابن تيمية والسيوطي والمناوي والشاطبي والذهبي والألباني .

لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به » . (أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم)[1].

— عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ليأتين على أمتي ما أتى على بني اسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هي يارسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . (الترمذي والآجري واللالكائي وغيرهم)[2].

— عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار » قيل : يارسول الله من هم ؟ قال : « الجماعة » (ابن ماجة واللالكائي وابن ابي عاصم)[3].

— عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » (ابن ماجة وأحمد واللالكائي وغيرهم)[4].

— عن أبي امامة قال : (افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، أو قال اثنتين وسبعين فرقة ، وتزيد هذه الأمة فرقة واحدة ، كلها في النار إلا السواد الأعظم) فقال له رجل : يا أبا أمامة ، من رأيك أو سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال : إني إذا لجرىء ، بل سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة) . (ابن أبي عاصم واللالكائي والطبراني)[5].

(١) صححه — أو حسنه — الحاكم والذهبي والعراقي وابن حجر وابن تيمية والألباني .
(٢) حسن بشواهد كثيرة . حسنه الترمذي ونقل عنه ذلك العراقي وابن تيمية حيث احتج به .
(٣) ذكره الألباني في السلسلة الصحيحه ج٣ ص٤٨٠ حديث ١٤٩٢ وقال : هذا إسناد جيد .
(٤) صححه الألباني في تخريج السنة لأبن أبي عاصم ونقل تصحيح البوصيري له .
(٥) حسنه ابن أبي عاصم والهيثمي .

ثانياً : حديث لاتزال طائفة من أمتي على الحق :

— عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس »[١].

— وفي لفظ : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة »[٢].

— وفي لفظ : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة ، أو حتى يأتي أمر الله »[٣].

— وفي لفظ (فقام مالك بن يخامر السكسكي فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعت معاذ ابن جبل يقول : وهم أهل الشام . فقال معاوية ورفع صوته : هذا مالك يزعم أنه سمع معاذا يقول : وهم أهل الشام)[٤].

— عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »[٥].

— وفي لفظ : « لا يزال ناس من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله عز وجل »[٦].

— وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . قال : فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض امراء تكرمة الله هذه الأمة »[٧].

---

(١) مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) البخاري .
(٤) أحمد وابن ماجة وأبو داود الطيالسي واللالكائي .
(٥) البخاري .
(٦) أحمد والدارمي واللالكائي والدارمي .
(٧) مسلم وأحمد .

— وعن ثوبان رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[١].

— وفي لفظ : « إن الله عز وجلّ زوى لي الأرض — أو قال : إن ربي زوى لي الأرض — فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، ولا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، وإن ربي عز وجل قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لايرد — وقال يونس: لايرد — وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، ولا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها — أو قال: من بأقطارها — حتى يكون بعضهم يسبي بعضا ، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وضع في أمتي السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ، ولاتقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي. ولاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل »[٢].

— عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال : كنت عند مسلم بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية ، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم . بينا هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : ياعقبة ، اسمع ما يقول عبد الله فقال عقبة : هو أعلم ، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » فقال عبد الله : أجل ، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك مسها مس الحرير ، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة[٣].

---

(١) مسلم
(٢) أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم .
(٣) مسلم .

— عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لايزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »[1].

— عن قرة المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، ولا يزال أناس من أمتي منصورين ، لا يبالون من خذلهم حتى تقوم الساعة »[2].

— عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة »[3].

— عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتي يقاتل آخرهم المسيح الدجال »[4].

— عن سلمة بن نفيل الكندي رضي الله عنه قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، فقال رجل : يارسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا : لا جهاد ، قد وضعت الحرب أوزارها . فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال : كذبوا ، الآن ، الآن جاء القتال ، ولايزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة . وحتى يأتي وعد الله ، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وهو يوحي إلى أني مقبوض غير ملبث ، وأنتم تتبعوني أفنادا ، يضرب بعضكم رقاب بعض . وعقر دار المؤمنين الشام »[5].

— وقد روى هذه الأحاديث جمع آخر من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم : أبو هريرة وعمر بن الخطاب وزيد بن أرقم وأبو أمامة ومرة بن كعب البهزي.

(١) مسلم واللالكائي .
(٢) أحمد والترمذي وابن ماجة واللالكائي .
(٣) مسلم .
(٤) أحمد .
(٥) النسائي .

ثالثاً : الأحاديث الدالة على وجوب لزوم الجماعة واتباع السنة :

— عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية »[1].

— وفي لفظ « من رأى من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية »[2].

— عن ابن عمر رضي الله عنهما — أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال : «استوصوا بأصحابي خيرا ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشوا الكذب ، حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها ، فمن أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد .....»[3].

— عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال ، قال رسول الله ﷺ : «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة التي بعدها كفارة لما بينهما ، قال والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر — يعني رمضان إلى رمضان — كفارة لما بينهما ، قال : ثم قال بعد ذلك : إلا من ثلاث — قال فعرفت أن ذلك الأمر حدث — إلا من الإشراك بالله ونكث الصفقة ، وترك السنة ، قال : أما نكث الصفقة أن تبايع رجلا ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك ، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة »[4].

— عن سمرة بن جندب — رضي الله عنه — قال : أما بعد فإن النبي ﷺ سمى خيلنا خيل الله إذا فزعنا ، وكان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا فزعنا بالجماعة والصبر والسكينة إذا قاتلنا[5].

— عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : « يد الله مع الجماعة »[6].

(١) البخاري .
(٢) البخاري ومسلم .
(٣) أحمد والترمذي والحاكم وابن أبي عاصم
(٤) أحمد والحاكم .
(٥) أبو داود .
(٦) الترمذي والطبراني وابن أبي عاصم .

— عن ابن عمر — رضي الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجمع الله هذه الأمة — أو قال أمتي — على ضلالة »[1].

— وفي لفظ — وبعده : « واتبعوا السواد الأعظم فانه من شذ شذ في النار »[2].

وعن ابن مسعود — رضي الله عنه — قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، الثيب الزاني ، والمفارق لدينه التارك للجماعة »[3].

— وعن العرباض بن سارية — رضي الله عنه — قال وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يارسول الله —؟ قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم يرى إختلافا كثيرا ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة ، فمن إدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ »[4].

— وعن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ، ويقول: « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين اصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ، ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلّي وعلّي »[5].

رابعاً : حديث حذيفة — رضي الله عنه :

— قال حذيفة — رضي الله عنه — : (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يارسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاء الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : «نعم»

(١) الترمذي والحاكم وابن أبي عاصم والطبراني واللالكائي .
(٢) الحاكم .
(٣) البخاري .
(٤) الترمذي وأبو داود وأحمد .
(٥) مسلم .

قلت : وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : « نعم ، وفيه دخن » قلت: وما دخنه ؟ قال : « قوم يهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : « نعم دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » ، قلت : يا رسول صفهم لنا قال « هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » فقلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » ، قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : « فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

— وفي لفظ لمسلم عن أبي سلام قال : (قال حذيفة بن اليمان : قلت يارسول الله ، إنا كنا بشر فجاء الله بخير ، فنحن فيه ، فهل من وراء هذا الخير شر ؟ قال : « نعم » قلت كيف ؟ قال : « يكون بعد أئمة لا يهتدون بهداي ، ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال ، قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس » ، قال ، قلت : كيف أصنع يارسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك ، فاسمع وأطع »[2].

— وفي لفظ لأحمد وأبي داود (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وأسأله عن الشر ، وعرفت أن الخير لن يسبقني ، قلت : يارسول الله ، أبعد هذا الخير شر ، قال : « ياحذيفة ، تعلم كتاب الله واتبع ما فيه » — ثلاث مرات — قال : قلت : يارسول الله ، أبعد هذا الشر خير ؟ قال : « هدنة على دخن ، وجماعة على أقذاء » قال : قلت يارسول الله : الهدنة على دخن ماهي ؟ قال : « لا ترجع قلوب أقوام على الذي كانت عليه » ، قال قلت يارسول الله ، أبعد هذا الخير شر ؟ قال : « فتنة عمياء صماء ، عليها دعاة على أبواب النار ، وأنت أن تموت ياحذيفة وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم »[3].

— وفي لفظ عن خالد اليشكري — وذكر القصة — قال : وحدث القوم (أي حذيفة) فقال : إن الناس كانوا يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر ، فأنكر ذلك القوم عليه ، فقال لهم : إني سأخبركم بما أنكرتم من ذلك:

(١) البخاري ومسلم .
(٢) مسلم .
(٣) أحمد وأبو داود .

جاء الإسلام حين جاء ، فجاء أمر ليس كأمر الجاهلية ، وكنت قد أعطيت في القرآن فهما ، فكان رجال يجيئون فيسألون عن الخير ، فكنت أسأله عن الشر ، فقلت : يارسول الله ، أيكون بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر ؟ فقال : « نعم » قال : قلت : فما العصمة يارسول الله ؟ قال : « السيف » ، قال : قلت : وهل بعد هذا السيف بقية ؟ قال : « نعم ، إمارة على أقذاء وهدنة على دخن » قال : قلت : ثم ماذا ؟ قال : « ثم تنشأ دعاة الضلالة ، فإن كان لله يومئذ في الأرض خليفة جلد ظهرك وأخذ مالك فالزمه ، وإلا فمت وأنت عاض على جذل شجرة » قال : قلت : ثم ماذا ؟ قال : « يخرج الدجال بعد ذلك ..... الحديث »[1].

---

(١) أحمد وأبو داود .

الفصل الثاني

تعريفات ضرورية

أولاً : تعريف السنة :

* السنة في اللغة العربية هي الطريقة ، محمودة كانت أم مذمومة ، وهي مأخوذة من السنن وهي الطريق[1]. ومنه الحديث « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[2].

قال القاضي عياض : (وقوله : لتتبعن سَنَن من كان قبلكم . بفتح السين والنون ، رويناه هنا ، أي طريقهم . وسنن الطريق : نهجه . ويقال : سننه ــ بضمهما ــ وسننه ــ بفتح السين وضم النون ــ جمع سنة وهي الطريقة أيضا)[3] أ هـ .

ويقول ابن الأثير : (وقد تكرر في الحديث ذكر (السنة) وما تصرف منها ، والأصل فيها الطريقة والسيرة)[4] أ هـ .

* وأما السنة في الإصطلاح الشرعي : فهي عند المحدثين (ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خِلقية ، أو خُلقية أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها ، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم)[5].

---

(١) لسان العرب ــ مادة (سنن) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) مشارق الأنوار ج٢ ص٢٢٣ .

(٤) النهاية ج٢ ص ٤٠٩ .

(٥) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ص ٤٧ .

وعند الأصوليين (ما جاء منقولا عن النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز ، بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام وكان بيانا لما في الكتاب أولا)[1].

وهي عند الفقهاء (ماثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب)[2].

وبعد افتراق الفرق ونشوء البدع وتشعب الأهواء ، صار لفظ السنة حين يقال : فلان من أهل السنة ، أو فلان متبع للسنة — يطلق على مايقابل البدعة (فيقال : فلان على سنة ، إذا عمل على وفق ماعمل عليه النبي ﷺ) ،[3] وعلى كل مادل عليه دليل شرعي ، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز أو عن النبي ﷺ ، أو اجتهد فيه الصحابة رضي الله عنهم ، كجمع المصحف ، وحمل الناس على القراءة بحرف واحد ، وتدوين الدواوين[4].

(ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم : السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الإعتقادات ، خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكذلك في مسائل القدر ، وفضائل الصحابة . وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها (كتب السنة) ، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم ، والمخالف فيه على شفا هلكة)[5].

أي أن مصطلح السنة ، وإن اشتهر عند المتأخرين باختصاصه بجانب العقائد ، لعظم شأنها وخطورة المخالفة فيها ، فإن اللفظ إذا أطلق دل على طريقة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، علما وعملا وخلقا وسلوكا وأدبا إلى كل مايشمل نواحي الحياة المختلفة. يقول ابن رجب : (وعن سفيان الثوري قال : (استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء) . ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة : طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات . ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول : (أهل السنة: من عرف ما يدخل في بطنه من حلال) . وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال

(١) الموافقات للشاطبي ج٤ ص٤٧ .
(٢) إرشاد الفحول للشوكاني ص٣١ .
(٣) الموافقات ج٤ ص٤ .
(٤) السنة للسباعي ص٤٨ .
(٥) ابن رجب .

السنة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم)[1] أ هـ .

ثانياً : تعريف الجماعة :

الاشتقاق اللغوي للجماعة واضح ، فهو مشتق من الإجتماع ، وضد الاجتماع الفرقة. يقول ابن تيمية : (الجماعة هي الاجتماع ، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار إسما لنفس القوم المجتمعين)[2] أ هـ .

ولكن إذا ذكر لفظ الجماعة مع السنة فقيل : أهل السنة والجماعة ، كان المراد بها (سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)[3].

فما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابة رضي الله عنهم فهو الحق الذي يجب الإقتداء بهم فيه واتباعه ، وكل من جاء بعدهم سالكا سبيلهم مقتفيا آثارهم فهم (الجماعة) سواء كان فردا أم جمعا .

يقول أبو شامه : (حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف كثيرا ، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، ولانظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم)[4] أهـ

ولما سئل عبد الله بن المبارك عن (الجماعة) قال : (أبو بكر وعمر) فقيل له : قد مات أبو بكر وعمر . قال : (ففلان وفلان) . فقيل له : قد مات فلان وفلان. قال ابن المبارك : (أبو حمزة السكري جماعة)[5].

فابن المبارك أراد أن يفسر الجماعة بمن اجتمعت فيه صفات الإتباع الكامل للكتاب والسنة ، ولذلك ضرب المثل بمن يقتدي بهم من هؤلاء ، فلم يذكر في زمنه إلا أباحمزة السكري الذي كان من أهل العلم والفضل والزهد .

وأما الأحاديث التي أوجبت الالتزام بالجماعة وعدم الخروج عليها ، فقد اختلف العلماء

(١) ابن رجب .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٣ ص١٥٧ .
(٣) شرح الواسطية لهراس ص١٦ .
(٤) الباعث لأبي شامة ص٢٢ .
(٥) شرح السنة للبغوي ج١ ص٢٠٥ .

في المقصود بالجماعة الواردة في الأحاديث خلاف تنوع لا تضاد ولا تعارض فيه فيما نرى .

١ ــ فذهب البعض إلى أن الجماعة هنا هم الصحابة دون من بعدهم (فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده ، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ابدا)[١].
وهذا القول مروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .
فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . فكأنه راجع إلى ما قالوه وماسنوه وما اجتهدوا فيه ، فهو حجة على الإطلاق بشهادة رسول الله ﷺ لهم بذلك، خصوصا في قوله : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين .. الحديث » وأشباهه.

٢ ــ وقيل : هم أهل العلم والفقه والحديث من الأئمة المجتهدين (لأن الله جعلهم حجة على الخلق والناس تبع لهم في أمر الدين)[٢] وهذا قول البخاري فإنه قال : (باب ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة ، وهم : أهل العلم)[٣]. وقال الترمذي : (وتفسير الجماعة عند أهل العلم : هم أهل الفقه والعلم والحديث ، ثم ساق روايته عن ابن المبارك حين قال : أبو بكر وعمر ــ لما سئل عن الجماعة)[٤] وقال ابن سنان : (هم أهل العلم وأصحاب الآثار)[٥].

وعلى هذا فالجماعة هم أهل السنة العالمون العارفون المجتهدون . فيخرج من هؤلاء المبتدعة . كما يخرج منهم العامة المقلدون ، فإنهم لا يقتدى بهم ، وإنما الغالب فيهم أنهم يكونون تبعا للعلماء .

٣ ــ وقيل : الجماعة هم جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من أمور الشرع. (أي أهل الإجماع إذا أجمعوا على مسألة أو حكم سواء كان في الشرع أو الاعتقاد. وهذا القول مأخوذ من الحديث « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[٦].

---

(١) الاعتصام للشاطبي ج٢ ص٢٦٢ .
(٢) فتح الباري ج١٣ ص٢٧ .
(٣) فتح الباري ج١٣ ص٣١٦ .
(٤) سنن الترمذي ج٤ ص٤٦٥ .
(٥) شرف أصحاب الحديث ص٢٦-٢٧ .
(٦) الاعتصام ج٢ ص٢٦٣ .

يقول ابن حجر تعليقا على قول البخاري ــ وهم أهل العلم : (والمراد بالجماعة أهل الحل والعقد من كل عصر . وقال الكرماني : مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أنه يلزم المكلف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون ، وهو المراد بقوله ــ وهم أهل العلم ــ والآية التي ترجم لها (أي البخاري) احتج بها أهل الأصول لكون الإجماع حجة لأنهم عدلوا بقوله تعالى : ﴿ جعلناكم أمة وسطا ﴾ أي عدولا . ومقتضى ذلك أنهم عُصموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولا وفعلا)[١] أ هـ .
وهذا القول راجع إلى القول الثاني .

٤ ــ وقيل : هم السواد الأعظم . وعليه تُحمل رواية (وهم السواد الأعظم) . قال في النهاية : (وفيه : عليكم بالسواد الأعظم : أي جملة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج القويم)[٢] أ هـ .
وهذا القول مروي عن أبي غالب الذي قال : (إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق ، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق ، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية ، سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق)[٣] أ هـ . وممن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود .
يقول الشاطبي معقبا : (فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدوا الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها . ومن سواهم داخلون في حكمهم لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم . فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان . ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة ، لم يدخلوا في سوادهم بحال)[٤] أ هـ .

٥ ــ وقيل : الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير . وهذا رأي الطبري الذي ذكر الأقوال السابقة ثم قال : (والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره ، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة)[٥] أ هـ .

---

(١) فتح الباري ج ١٣ ص ٣١٦ .
(٢) النهاية ج ٢ ص ٤١٩ .
(٣) الاعتصام ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) الاعتصام ج ٢ ص ٢٦١ .
(٥) فتح الباري ج ١٣ ص ٣٧ .

(فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم)[1] أ هـ وقال : (أما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضا بتقديم أمير ، كان المفارق لها ميتا ميتة جاهلية ، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري ، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم وهم السواد الأعظم)[2] أ هـ .

** وحاصل هذا القول (أن الجماعة راجعة الى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة ، وذلك ظاهر في أن الإجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكورة في الأحاديث المذكورة)[3].

* هذه أهم الأقوال في معنى الجماعة التي ورد الأمر بلزومها ، وحاصلها أن الجماعة ترجع الى أمرين :

(أ): أنها الجماعة إذا اجتمعوا على إمام على مقتضى الشرع، فيجب لزوم هذه الجماعة ويحرم الخروج عليها.

(ب): أنها ما عليه أهل السنة من الإتباع وترك الابتداع، أو هي المذهب. الحق. وهذا معنى تفسير الجماعة بالصحابة، أو أهلل العلم، أو أهل الإجماع، أو السواد الأعظم فهي كلها ترجع إلى معنى واحد وهو: من كان على مثل ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، سواء كان قليلاً أو كثيراً، فحسب أحوال الأمة واختلاف أمكنتها وأزمانها. ولهذا قال عبدالله بن مسعود: (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك)[4].

* وفي لفظ: (إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك)[5].

---

(١) الاعتصام ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٢) الاعتصام ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٣) الاعتصام ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٤) الحوادث والبدع لأبي شامة ص ٢٢ وقال أخرجه البيهقي في المدخل .
(٥) اللالكائي في شرح السنة ج ١ ص ١٠٨-١٠٩ .

* ثالثاً : تعريف أهل الحديث :

الحديث في اللغة : ضد القديم .
وفي الإصطلاح : (ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلقي أو خُلقي)[1].
وأما علم الحديث فهو قسمان :

— علم الحديث رواية : وهو (علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته ، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها)[2].

— علم الحديث دراية : وهو (علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن)[3] وهو ما يعرف بمصطلح الحديث .

فإذا قيل (أهل الحديث) فالمقصود بهم الذين يعنون بحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية ، باذلين جهدهم على مدارسة أحاديث النبي ﷺ وروايتها واتباع ما فيها علما وعملا ، ملتزمين بالسنة مجانبين للبدعة ، متميزين عن أهل الأهواء الذين يقدمون مقالات أهل الضلالة على أقوال رسول الله ﷺ ، ويقدمون عقولهم الفاسدة ومنطقهم المتهافت وكلامهم المتناقض على ما جاء به الكتاب العزيز والسنة الشريفة .

فأهل الحديث إذن أولى الناس بالإعتقاد الحق والالتزام بالسنة والجماعة والفرقة الناجية. ولذلك قال الإمام أحمد عن الجماعة : (إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم)[4] وكذلك لما ذكر الشيخ أبو اسماعيل الصابوني صفات أهل الحديث في رسالته التي سماها (عقيدة السلف أصحاب الحديث) أو (الرسالة في إعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة) قال عنهم : (ويقتدون بالنبي ﷺ وبأصحابه الذين هم كالنجوم .. ويقتدون بالسلف الصالحين من أئمة الدين وعلماء المسلمين ، ويتمسكون بما كانوا به متمسكين من الدين المتين والحق المبين ، ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه ، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم)[5] أ هـ

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٦ .
(٢) تدريب الراوي ج ١ ص ٤٠ .
(٣) تدريب الراوي ج ١ ص ٤١ .
(٤) شرف أصحاب الحديث ص ٢٥ .
(٥) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص ٩٩-١٠٠ .

ويقول الشيخ الأصبهاني عن أهل الحديث : (وجدنا سنته وعرفناها بهذه الآثار المشهورة التي رويت بالأسانيد الصحاح المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء بعضهم عن بعض ، فنظرنا إلى هذه الفرقة ــ أعني أصحاب الحديث ــ وهم لها أطلب ، وفيها أرغب ، ولها أجمع ، ولصحاحها أتبع ، فعلمنا يقينا بالكتاب والسنة أنهم أهلها دون سواهم من جميع الفرق .. ورأينا أصحاب الحديث رحمهم الله قديما وحديثا هم الذين رحلوا في طلب هذه الآثار التي تدل على سنن رسول الله ﷺ ، فأخذوها من معادنها، وجمعوها من مظانها ، وحفظوها ، فاغتبطوا بها ، ودعوا إلى إتباعها ، وعابوا من خالفها، فكثرت عندهم وفي أيديهم حتى اشتهروا بها)(1) أ هـ .

* وهكذا نلاحظ أن (أهل الحديث) و (أهل السنة) مصطلحان قريبان وبينهما عموم وخصوص أو إطلاق وتقييد . فإذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر وأصبح اللفظ دالا بمفرده على جميع طوائف الفرقة الناجية من فقهاء ومحدثين وعلماء وأمراء وزهاد ومقاتلين وأصوليين ونحاة ولغويين ، إلى آخر أنواع أهل الخير . ويكون اللفظ هنا مرادفا (لأهل الحق) أو (أهل القرآن) وما إلى ذلك . وإذا اجتمع اللفظان دل الأول على أهل هذا الفن وأصحابه من المتخصصين في علم الحديث ، ودل الآخر على بقية أهل الخير .

* يقول ابن تيمية : (ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته ، بل نعني بهم : كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرا وباطنا ، وإتباعه باطنا وظاهرا ، وكذلك أهل القرآن . وأدنى خصلة في هؤلاء : محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما ، والعمل بما علموه من موجبها .

* ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم ، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم ، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم)(2) أ هـ .

(1) الحجة في بيان المحجة ورقة ١٦٦ب – ١٦٧ب مخطوط .
(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٤ ص ٩١–٩٥ .

رابعاً : تعريف السلف :

أما في اللغة (السلف أيضا من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل)(1) و (السلف : المتقدمون ، وسلف الرجل : أبواه المتقدمان)(2)

وأما في الإصطلاح فتدور كل التعريفات للسلف حول الصحابة ، أو الصحابة والتابعين ، أو الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمة الأعلام المشهود لهم بالإمامة والفضل واتباع الكتاب والسنة .

يقول القلشاني : (السلف الصالح ، وهو الصدر الأول الراسخون في العلم ، المهتدون بهدي النبي ﷺ ، الحافظون لسنته ، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ، وانتخبهم لإقامة دينه ورضيهم أئمة الأمة ، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وأفرغوا في نصح الأمة ونفعهم ، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم ، قد أثنى الله عليهم في كتابه .. فيجب اتباعهم فيما نقلوه ، واقتفاء آثارهم فيما عملوه ، والاستغفار لهم)(3) أهـ .

وقال أبو الحسن : (وهم الصحابة في أقوالهم وأفعالهم وفي ما تأولوه واستنبطوه عن اجتهادهم)(4) أ هـ .

وقال العدوي في الحاشية : (قصره على الصحابة ، لما قال ابن ناجي : السلف الصالح وصف لازم يختص عند الإطلاق بالصحابة ، ولا يشاركهم غيرهم فيه)(5) أ هـ .

وقال الغزالي عن السلف : (أعني مذهب الصحابة والتابعين)(6) أ هـ .

وقال الباجوري : (والمراد بمن سلف من تقدم من الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم ، خصوصا الأئمة الأربعة المجتهدين)(7) أ هـ .

ويقول الشيخ محمود خفاجي : (وليس هذا التحديد الزمني كافيا في ذلك ، بل لابد أن يضاف إلى هذا السبق الزمني موافقة الرأي للكتاب والسنة وروحها ، فمن خالف

(1) لسان العرب ج ٩ ص ١٥٩ .
(2) تحرير المقالة من شرح الرسالة ص ٣٦ نقلا عن (المفسرون بين التأويل والإثبات) للمغراوي ج ١ ص ١٨ .
(3) نفس المرجع .
(4) نفس المرجع (المفسرون بين التأويل والإثبات) للمغراوي ج ١ ص ١٨ .
(5) الحاشية ص ١٠٦ .
(6) إلجام العوام عن علم الكلام ص ٦٢ .
(7) شرح الجوهرة ص ١١١ .

رأيه الكتاب والسنة فليس بسلفي وإن عاش بين أظهر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين)[١] أ هـ .

ويقول الشيخ ابن حجر القطري في كتابه العقائد السلفية بأدلتها العقلية والنقلية : (وعلى ذلك فالمراد بمذهب السلف ماكان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة وعرف عظم شأنه في الدين ، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف ، كالأئمة الأربعة ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، والنخعي ، والبخاري ، ومسلم ، وسائر أصحاب السنن دون من رمى ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي مثل : الخوارج ، والروافض ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة)[٢] أ هـ .

فالسلف إذن مصطلح يطلق على الأئمة المتقدمين من أصحاب القرون الثلاثة الأولى المباركة ، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين المذكورين في حديث رسول الله ﷺ : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته »[٣]. فكل من التزم بعقائد وفقه وأصول هؤلاء الأئمة كان منسوبا إليهم وإن باعدت بينه وبينهم الأماكن والأزمان . وكل من خالفهم فليس منهم وإن عاش بين أظهرهم وجمعه بهم نفس المكان والزمان .

* خامساً : تعريف الطائفة المنصورة :

الطائفة المنصورة المذكورة في الأحاديث هي طائفة مجاهدة من أهل السنة ، تجتمع فيها أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله عز وجل : من علم صحيح وسلوك مستقيم مع سنن الله في كونه وأخذ بالمقدمات التي جعلها الله وسيلة موصلة إلى نتائجها المرجوة . وإلا فإن مجرد الإيمان والإلتزام بعقائد أهل السنة دون الأخذ بأسباب النصر ومقدماته المادية ، ودون الإلتزام بسنن الله الكونية الصارمة — التي لا تحابي أحداً على حساب أحد — لا يضمن النصر ولا يكفل الظهور والتمكين في الأرض الذي وعد الله به عباده المخلصين .

(١) العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة ص ٢١ .
(٢) المفسرون بين التأويل والإثبات للمغراوي ج ١ ص ١٩-٢٠ .
(٣) أخرجه البخاري .

* فالطائفة المنصورة إذن هي مجموعة من أهل السنة والجماعة ، هذه المجموعة تلتزم بالفقه الصحيح الثابت للسلف والأئمة ، فتأخذ بأسباب النصر ومقدماته الصحيحة ، فينصرها الله عز وجل ، فلا يضرها من خالفها ولا من خذلها .

* والطائفة المنصورة — شأنها شأن كل خلق الله إلا من عصم ربك — يختلط فيها الخير والشر والعدل والبغي والطاعة والمعصية ، ولكنها على الجملة أرجح في عموم الأحوال من غيرها وأحق بنصر الله من غيرها ، وأقدر على تحمل مسئولية هذا الدين والقيام بحق الأمانة التي يحملها إياهم ربهم من غيرهم .

* يقول ابن تيمية : (وقد كان معاوية والمغيرة وغيرهما يحتجون لرجحان الطائفة الشامية بما هو في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » . فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذا يقول : (وهم بالشام) . فقال معاوية : وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذا يقول : وهم بالشام ، وهذا الذي في الصحيحين من حديث معاوية فيهما أيضا نحوه من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال : « لاتزال من أمتي أمة ظاهرة على الحق حتي يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وهذا يحتجون به في رجحان أهل الشام بوجهين :

أحدهما : أنهم الذين ظهروا وانتصروا وصار الأمر إليهم بعد الاقتتال والفتنة ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يضرهم من خالفهم » ، وهذا يقتضي أن الطائفة القائمة بالحق من هذه الأمة هي الظاهرة المنصورة ، فلما انتصر هؤلاء كانوا أهل الحق .

والثاني : أن النصوص عينت أنهم بالشام ، كقول معاذ ، وكما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لايزال أهل الغرب ظاهرين » . قال الإمام أحمد : وأهل الغرب هم أهل الشام ، وذلك أن النبي ﷺ كان مقيما بالمدينة ، فما يغرب عنها فهو غربه ، وما يشرق عنها فهو شرقه ، وكان يسمي أهل نجد وما يشرق عنها أهل المشرق ، كما قال ابن عمر : قدم رجلان من أهل المشرق فخطبا ، فقال النبي ﷺ : « إن من البيان لسحرا » .

وقد استفاضت السنن عن النبي ﷺ في (الشر) أن أصله من المشرق كقوله : « الفتنة من هاهنا ، الفتنة من هاهنا » ويشير إلى المشرق . وكقوله ﷺ : « رأس الكفر نحو المشرق » . ونحو ذلك . فأخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب ، وهو الشام وما يغرب عنها ، والفتنة ورأس الكفر بالمشرق . وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام أهل الغرب ، ويقولون عن الأوزاعي : إنه إمام أهل المغرب ، ويقولون عن سفيان الثوري ونحوه : إنه شرقي إمام أهل المشرق . وهذا لأن منتهى الشام عند الفرات وهو على مسامتة مدينة الرسول ﷺ طول كل منهما ، وبعد ذلك حران والرقة ونحوهما على مسامتة مكة . ولهذا كانت قبلتهم أعدل القبلة بمعنى أنهم يستقبلون الركن الشامي ويستدبرون القطب الشامي من غير إنحراف إلى ذات اليمين كأهل العراق ، ولا ذات الشمال كأهل الشام .

قالوا : فإذا دلت هذه النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف ولا خذلان الخاذل هي بالشام ، كان هذا معارضا لقوله : « تقتل عمارا الفئة الباغية » ، ولقوله : « تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » . وهذا من حجة من يجعل الجميع سواء والجميع مصيبين ، أو يمسك عن الترجيح ، وهذا أقرب . وقد احتج به من هؤلاء على أولئك ، لكن هذا القول مرغوب عنه وهو من أقوال النواصب ، فهو مقابل بأقوال الشيعة والروافض ، هؤلاء أهل الأهواء ، وإنما نتكلم هنا مع أهل العلم والعدل .

ولاريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها والتأليف ، فيقال : أما قوله ﷺ : « لايزال أهل الغرب ظاهرين » ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم ، فهكذا وقع وهذا هو الأمر ، فإنهم مازالوا ظاهرين منتصرين . وأما قوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله » ومن هو ظاهر ، فلا يقتضي أن لا يكون فيهم من فيه بغي ، ومن غيره أولى بالحق منهم ، بل فيهم هذا وهذا . وأما قوله : « تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » فهذا دليل على أن عليا ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى ، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحا في بعض الأحوال لم يمتنع أن يكون قائما بأمر الله وأن يكون ظاهرا بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله ،

وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه . وأما كون بعضهم باغيا في بعض الأوقات ، مع كون بغيه خطأ مغفورا أو ذنبا مغفورا ، فهذا أيضا لا يمنع ما شهدت به النصوص ، وذلك أن النبي ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم ، ولاريب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال

وكذلك عمر بن الخطاب كان يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق ، حتى قدم الشام غير مرة ، وامتنع من الذهاب إلى العراق ، واستشار فأشار عليه أن لا يذهب إليها ، وكذلك في حين وفاته لما طعن أدخل عليه أهل المدينة أولا وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة ، ثم أدخل عليه أهل الشام ، ثم أدخل عليه أهل العراق ، وكانوا آخر من دخل عليه . هكذا في الصحيح . وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال : لكفر من كفور الشام أحب إليّ من فتح مدينة بالعراق .

والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق أكثر من أن تذكر هنا ، بل عن النبي ﷺ من النصوص الصحيحة في ذم المشرق ، وإخباره « بأن الفتنة ورأس الكفر منه » ما ليس هذا موضعه ، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين علي ، وذلك كان أمرا عارضا ، ولهذا لما ذهب علي ظهر منهم الفتن والنفاق والردة والبدع ما يعلم به أن أولئك كانوا أرجح . وكذلك أيضا لاريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام ، كما كان علي وابن مسعود وعمار وحذيفة ونحوهم أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة ، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح .

والنبي ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائما إلى آخر الدهر ، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر ، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة ، وهذا الوصف ليس لغير الشام من أرض الإسلام ، فإن الحجاز ، (التي هي أصل الإيمان) نقص في آخرالزمان منها العلم والإيمان والنصر والجهاد ، وكذلك اليمن والعراق والمشرق .

وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان ، ومن يقاتل عليه منصورا مؤيدا في كل وقت ، فهذا هذا والله أعلم وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه مع أن عليا

كان أولى بالحق ممن فارقه ، ومع أن عمارا قتلته الفئة الباغية كما جاءت به النصوص ، فعلينا أن نؤمن بكل ماجاء من عند الله ونقر بالحق كله ، ولايكون لنا هوى ، ولا نتكلم بغير علم ، بل نسلك سبل العلم والعدل وذلك هو اتباع الكتاب والسنة فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ الفرقة والإختلاف)[١] أ هـ

ويؤكد شيخ الإسلام على نفس الكلام في عصره هو فيقرر : (أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما ، فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام ، وهم من أحق الناس دخولا في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ .. وقد جاء في حديث آخر في صفة الطائفة المنصورة (أنهم بأكناف البيت المقدس) وهذه الطائفة هي التي بأكناف البيت المقدس اليوم)[٢] أ هـ

ضرورة التمييز بين الأمر الشرعي والأمر الكوني

ونحب أن ننبه هنا على معنى هام ، كثيرا ما يختلط في ذهن بعض المسلمين ، وهو ضرورة التمييز بين الأمر الكوني والأمر الشرعي ، أو الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ، أو بين ماأراده الله بنا وبين ما أراده منا . بمعنى أن المسلم مطالب أولا وآخرا بتتبع الأوامر الشرعية والتزام ماهو مطلوب منه والعمل به بقدر وسعه وطاقته ، أيا كان زمانه ومكانه على ساحة العمل الإسلامي فهذا هو ماسيحاسبه الله عليه فقط .

وأما ماوراء ذلك من الأوامر الكونية التي أرادها الله بمشيئته المطلقة وحكمته البالغة ، فالله أعلم أين ومتى يهب نصره وتمكينه لمن يستحق ذلك من عباده . فالعبد ليس له تجاه هذه الأوامر الكونية — متى ثبتت بالنصوص الشرعية الصحيحة — إلا الإيمان بها والتسليم لها ، وتوسم المقدمات والنتائج المرتبطة بها دون أن يقعده ذلك عن مهمته التي كلفه بها ربه ووظيفته التي ألزمه بها والتي سيحاسبه عليها بمقتضى الأوامر الشرعية — فقط — التي توضح له هذه المهمة وترسم له حدود هذه الوظيفة .

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ج ٤ ص ٤٤٥–٤٥٠ .
(٢) السابق ج ٢٨ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٥٢ .

الفصل الثالث
نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة

كيف نشأت التسمية :

إنما قلنا نشأة التهمية، ولم نقل نشأة أهل السنة، لأن مذهب أهل السنة هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فليسوا ممن ابتدع بدعة فنسبت إلى فرد أو طائفة حتى يقال: إنه نشأ في عام كذا ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم ، معروف ، قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ، فانه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ، ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة ، فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة ومتنازعون في إجماع من بعدهم)[١]. ثم يبين ابن تيمية لماذا نسب مذهب أهل السنة إلى الإمام أحمد فيقول: (وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة ، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا ، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها ، وصبر على من امتحنه ليفارقها ، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة ، فلما وقعت محنة الجهمية ، نفاة الصفات ، في أوائل المئة الثالثة — على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق — ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى ، وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخروا الرافضة ، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة حتى تهددوا(وفي نسخة هددوا) بعضهم بالقتل،وقيدوا بعضهم وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة ، وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة ، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته ، فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم ... (وذكر محنته) ثم قال : (ثم صارت هذه الأمور سببا في البحث عن مسائل الصفات

(١) منهاج السنة ٤٨٢/٢ — تحقيق محمد رشاد سالم .

وما فيها من النصوص والأدلة والشبهات من جانبي المثبتة والنفاة ، وصنف الناس في ذلك مصنفات ، وأحمد وغيره من علماء السنة والحديث مازالوا يعرفون فساد مذهب الروافض والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة ، ولكن بسبب المحنة كثر الكلام ورفع الله قدر هذا الإمام فصار إماما من أئمة السنة ، وعلما من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها ، وإطلاعه على نصوصها وآثارها . وبيانه لخفى أسرارها ، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيا . ولهذا قال بعض شيوخ المغرب : (المذهب لمالك والشافعي والظهور لأحمد يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد وهو كما قال)[١]

فمن هذا النص المتين يتبين أن أهل السنة والجماعة ، إنما هم امتداد لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا ما قام إمام — في زمن البدع أو غربة أهل السنة — بالدعوة إلى العقيدة السليمة ومحاربة ما يخالفها فهو لم يأت بجديد وإنما جّدد ما اندرس من مذهب أهل السنة وأحيا ما مات منه ، وإلا فالعقيدة لم تتغير والمنهج في العقيدة لم يتغير ، فاذا ما وقع في بعض الأزمان أو الأمكنة نسبة مذهب أهل السنة إلى عالم من العلماء أو مجدد من المجددين فلأنه دعا إليه لا لأنه ابتدعه أو اخترعه .

أما عن بدء التسمية بأهل السنة والجماعة ، أو أهل الحديث فكانت له بداية ، لأن الإفتراق لما حصل ، وتعددت هذه الفرق وكثرت البدع والانحرافات كان لابد لأهل السنة أن يتميزوا عن غيرهم في اعتقادهم وفي منهجهم ، وإن كانوا في الحقيقة امتدادا طبيعيا لما كان عليه الرسول وأصحابه .

كيف بدأت الفتنة :

والكلام حول بدء الفتنة ونشوء الفرق يطول ولكن نشير إلى لمحات في هذا الأمر لنصل في النهاية الى كيف تميز أهل السنة والجماعة عن غيرهم :

١ — من المعلوم أن أول بدعة حدثت بدعة الخوارج والروافض ، وذلك على أثر فتنة عبد الله بن سبأ ومقتل عثمان — رضي الله عنه — فالخوارج كفروا عليا وخرجوا عليه ، والروافض ادعو إمامته وعصمته أو نبوته ، أو إلهيته .

ثم بعد ذلك أخذت البدع تتوالى ، فـ (لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية ، ثم لما كان أول عصر التابعين — في أواخر الخلافة الأموية — حدثت بدعة الجهمية والمشبهة والممثلة ، ولم يكن

(١) منهاج السنة ج٢ ص٤٨٢–٤٨٦ تحقيق محمد رشاد سالم .

على عهد الصحابة شيء من ذلك)[١].

٢ — لما وقت الفتنة عني المسلمون بالبحث عن الإسناد ، ونقد الرجال ، وذلك لأن السلف خافوا من الكذب على رسول الله ﷺ — وخاصة مع تفرق الأهواء وظهور البدع — روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قال : (لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم، فينطر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلايؤخذ حديثهم)[٢]. وابن سيرين كان يقول : (إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[٣].

فالعناية بالحديث من ناحية الرواية بدأ يتحدد وقت الفتنة ، وبدأ علماء السنة يميزون مَنْ تقبل روايته ممن لا تقبل ، فمن كان من أهل الاتباع والسنة قبلت روايته ، ومن كان من أهل البدعة ردت روايته إلا بشروط دقيقة[٤].

والملاحظ أن الكذب قد اشتهر عند الرافضة ، ولذلك قال عنهم الإمام الشافعي — رحمه الله — : (لم أر أحدا من أهل الأهواء أشهد بالزور من الرافضة)[٥]. ولما وقعت فتنة المختار — ذى الميول الشيعية — اشتهر في زمنه الكذب ووضع الحديث على رسول الله ﷺ . ولهذا روى الإمام أحمد عن جابر بن نوح عن الأعمش عن إبراهيم (النخعي) قال: إنما سُئِل عن الإسناد أيام المختار) ، وسبب هذا أنه كثر الكذب على علّي في تلك الأيام ، كما روى شريك عن أبي اسحاق سمعت خزيمة بن نصر العبسي —أيام المختار وهم يقولون من الكذب —وكان من أصحاب علي— قال : (مالهم قاتلهم الله ، أي عصابة شانوا وأي حديث أفسدوا)[٦].

(١) المنتقى لابن تيمية ص ٣٨٧ .

(٢) صحيح مسلم ، المقدمة ص ١٥ ، وانظر الكفاية ص ١٦٢–١٦٣ — ط هندية ، وانظر شرح علل الترمذي لابن رحب ٥١/١ تحقيق عتر .

(٣) الكفاية ١٦٢ .

(٤) حكم الرواية عن المبتدع تكلم عنها العلماء في كتب المصطلح . وقد قبلوا الرواية عنهم بشروط وانظر الكفاية ص ١٥٩ ومابعدها (هندية) وشرح علل الترمذي ٥٣/١ ومابعدها وانظر تدريب الراوي ٣٢٤/١ ومابعدها .

(٥) الكفاية ص ١٦٧ .

(٦) شرح علل الترمذي ٥٢/١ .

ومع البدء بالحث عن الإسناد ، ومعرفة الرجال وتميز رواياتهم أخذ أهل الحديث يتميزون عن غيرهم من أهل الأهواء ، فظهر مصطلح (أهل الحديث) أي أهل السنة الذين يعنون بالحديث ، والذين تقبل روايتهم لأنهم لم يبتدعوا ولم يتشربوا شيئا من أقوال أهل الأهواء .

٣ــ ويقابل الروافض الخوارج ــ وفتنتهما من أول الفتن والبدع ظهورا ــ لكن الخوارج اشتهر عنهم الصدق[١]، ولذلك روى البخاري وغيره عن دعاتهم . ولكن الخوارج تميزت فتنتهم وضلالتهم بأنهم خرجوا عن جماعة المسلمين ، وكّفروا من عداهم ، وميزوا صفوفهم عن صفوف غيرهم من المسلمين ، وحاربوا وقاتلوا ، فصارت بدعتهم وانحرافهم شديدة الوطأة على المسلمين ولذلك قاتلهم علي رضي الله عنه ، وأجمع الصحابة على قتالهم .

ولما خرج الخوارج وكثرت الفتن حرص المسلمون على المحافظة على الجماعة ونبذ الفرقة ، ولهذا لما اجتمعوا على معاوية ــ رضي الله عنه ــ عام إحدى وأربعين بعد تنازل الحسن ــ رضي الله عنه ــ سموا هذا العام عام الجماعة .

وهكذا يتبين كيف حرص المسلمون على الحديث وتمييز من يؤخذ عنه ومن لايؤخذ عنه وبروز وصف أهل السنة وأهل الحديث كسمة بارزة لهؤلاء . كما حرص المسلمون على الجماعة ، ولذلك أصبح من يعني بالسنة واتباعها ويجتنب البدعة ، ولا يخرج على جماعة المسلمين ببدعة ولا بغيرها ــ يسمي من (أهل السنة والجماعة) .

وقد بدأ أهل السنة يصنفون كتبا في العقيدة (يسمونها) كتب السنة يروون فيها بالإسناد عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين من سلف هذه الأمة ، ويركزون في هذه العقائد على بيان وجوب الإتباع وتحريم الإبتداع ، وعلى وجوب إعتقاد ماكان عليه السلف في الأسماء والصفات والإيمان والقدر وغير ذلك من أمور العقيدة ، ويركزون أيضا على وجوب إتباع الجماعة وعدم الخروج على إمام المسلمين ولو كان فاسقا ، وكل جانب من هذه الجوانب قد ضلت منه فرقة

---

(١) ليس كلهم ، فقد روى الخطيب البغدادي ــ بسند فيه ابن لهيعة ــ قال : سمعت شيخا من الخوارج وهو يقول : إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا (الكفاية ص ١٦٣) .

من الفرق مابين مفرِط ومفّرط ، وأهل السنة وسط بين هؤلاء كما أن المسلمين وسط بين أصحاب الملل .

الباب الثاني

* مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي ولا انتصرت لذلك ؛ ولا أذكره في كلامي ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها .

ابن تيمية

وهو يحتوي على الملامح العامة والصفات الأساسية التي تميز أهل السنة والجماعة عن غيرهم من الفرق سواءً في منهج التلقي أو العقائد أو الأخلاق والسلوك . مع إلقاء بعض الضوء على أهل البدع وأهم الفرق المخالفة للسنة والجماعة .

وهو يحتوي على عشرة فصول :

الفصل الأول : منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة .

الفصل الثاني : الملامح العامة لأهل السنة والجماعة .

الفصل الثالث : الخصائص الأخلاقية والسلوكية لأهل السنة والجماعة .

الفصل الرابع : الأصول التي اتفق عليها أهل السنة .

الفصل الخامس : أمور يقبل فيها الخلاف داخل أهل السنة والجماعة .

الفصل السادس: الصفات العامة للمفارقين للسنة والجماعة .

الفصل السابع : حكم المخالفين للسنة .

الفصل الثامن : رؤوس الفرق المخالفة للسنة والجماعة .

الفصل التاسع : نظرة أهل السنة والجماعة إلى البدع المخالفة للسنة وإلى أهلها .

الفصل العاشر : معاملة أهل السنة والجماعة لأهل البدع .

الفصل الأول

منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة

(١) كل ما وافق الكتاب والسنة أثبتوه وما خالفهما أبطلوه:

أهل السنة والجماعة أول ما يميزهم عن غيرهم هو منهاج التلقي لعلومهم ومصدر الحق الذي ينهلون منه عقائدهم وتصوراتهم وعباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم وأخلاقهم.

فمصدر العلم والحق في سائر فروع المعرفة الشرعية عند أهل السنة هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلا كلام لأحد قبل كلام الله، ولا هدي لأحد قبل هدي محمد ﷺ.

— (هم أهل الكتاب والسنة: لأنهم يؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد ويتبعون آثاره ﷺ باطنا وظاهرا) ج ٣ ص ١٥٧.

— (ولا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به رسول الله ﷺ. بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه) ج ٣ ص ٣٤٧.

— (ما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والإختلاف: فما كان من معانيها موافقا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن اتباع الظن جهل، وإتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم) ج ٣ ص ٣٤٧.

(٢) لا معصوم عندهم إلا رسول الله ﷺ

وأهل السنة لا معصوم عندهم إلا رسول الله ﷺ ، فالأئمة عندهم ليسوا بمعصومين بل كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ فمقالات أئمتهم تابعة لسنة نبيهم وليست مقدمة عليها .

— (أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ ، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر . وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة) ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٣) اجماع السلف الصالح عندهم حجة شرعية ملزمة لمن بعدهم :

وأهل السنة يعتقدون أن أعلم الخلق بدين الله بعد النبي ﷺ هم صحابته رضى الله عنهم والسلف الصالح فما أجمعوا عليه من أمر دينهم كان معصوما لايسع أحد أن يخرج عليه ، فإجماعهم حجة شرعية ملزمة لمن بعدهم . وكل من التزم بإجماعهم صار عضوا في جماعتهم .

— (هم (الجماعة) لأن الجماعة هي الإجتماع ، وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار إسما لنفس القوم المجتمعين . فهم مجتمعون على إتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . (فالإجماع) هو الأصل الثالث الذي يعتمدون عليه في العلم والدين . والإجماع الذي ينضبط : هو ماكان عليه السلف الصالح ، إذ بعدهم كثر الإختلاف وانتشرت الأمة) ج ٣ ص ١٥٧ .

— (وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً) ج ١٣ ص ٢٤

— (فدين المسلمين مبني على إتباع كتاب الله وسنة نبيه وما اتفقت عليه الأمة : فهذه الثلاثة هي أصول معصومة) ج ٢٠ ص ١٦٤ .

(٤) لا يقرون قولاً ولا يقبلون اجتهادا إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة والإجماع :

وأهل السنة يلتزمون (السنة) التي أتى بها رسول الله ﷺ ، ويلتزمون (جماعة) النبي ﷺ ، وهم صحابته ومن سار على دربهم وانتهج نهجهم ولا يقبلون إجتهادا أو قولا كائنا من كان قائله إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة والإجماع .

— (هم الذين يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة : الكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين) ج ٣ ص ١٥٧ .

لا يعارضون القرآن والسنة بعقل أو رأي أو قياس :

وأهل السنة والجماعة لا يحتذون ولا يقتدون ولا يلتزمون إذن إلا بعلم وسلوك السلف الصالح ومن أخذ عنهم والتزم جماعتهم وسار على دربهم وتقيد بأصولهم . وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم تعلموا تفسير القرآن والحديث من رسول الله ﷺ وعلموه للتابعين ولم يقدموا بين يدي الله ورسوله لا رأي ولا ذوق ولا عقل ولا وجد ولا غير ذلك .

— (ومما ينبغي أن يعلم : أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة . فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ ، فلم يحتج في ذلك إلى الإستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ... وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم إعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده ... فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به . ولهذا لايوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط : قد تعارض في هذا العقل والنقل ، فضلا عن أن يقول : فيجب تقديم العقل ؛ والنقل — يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين — إما أن يفوض وإما أن يؤول ... ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها — أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه) ج ١٣ ص ٢٧-٢٩ .

— (قال تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة ...

فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد ...

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله ..

فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالإقتداء بهم خير من الإقتداء بمن بعدهم . ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة مايذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

* وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوما ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم ، ولايحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه ...

لأن كثيرا من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام ، مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعا : كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة وإجماع الصحابة ...

وأيضا فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف ، فلابد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه) ج ١٣ ص ٢٣-٢٧ .

(٦) الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخره:

فأهل السنة إذن متمسكون بجماعة رسول الله ﷺ ، معرضون عن مواضع التفرق والإختلاف ، ملتزمون بجمل الكتاب والسنة والإجماع ، بعيدون عن مواطن المتشابهات التي تفرق الجمع وتشتت الشمل ، لأن الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة .

— (أخبر النبي ﷺ « أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة — وهي الجماعة — » وفي حديث عنه ﷺ أنه قال « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) ج ٣ ص ١٥٩ .

— (فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان . وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . فإن مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن إتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد

جاءهم من ربهم الهدى ... والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع ، ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والإختلاف ، فإن الفرقة والإختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله) ج ١٢ ص ٢٣٧ .

* لا يوجبون على العاجز في معرفة العلم ما يجب على القادر :

وأهل السنة يؤمنون بما جاء عن النبي ﷺ إيمانا مجملا ولكنهم يفرقون بين العاجز والقادر في معرفة ماجاء به الرسول ﷺ على التفصيل وهذا أصل عظيم وقعت بسبب عدم معرفته فتن كثيرة .

— (ولاريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا عاما مجملا ، ولاريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية .. وأما مايجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم ومعرفتهم وحاجتهم وما أمر به أعيانهم . فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك ، ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لايجب على من لم يسمعها . ويجب على المفتي والمحدث والمجادل ما لايجب على من ليس كذلك .. فإذا كان كثير مما تنازعت فيه الأمة — من هذه المسائل الدقيقة — قد يكون عند كثير من الناس مشتبها لا يقدرفيه على دليل يفيده اليقين : لا شرعي ولا غيره ، لم يجب على مثل هذا في ذلك ما لايقدر عليه . وليس عليه أن يترك مايقدر عليه من إعتقاد قوي غالب على ظنه لعجزه عن تمام اليقين . بل ذلك هو الذي يقدر عليه ، ولاسيما إذا كان مطابقا للحق . فالإعتقاد المطابق للحق ينفع صاحبه ويثاب عليه ويسقط به الفرض إذا لم يقدر على أكثر منه) ج ٣ ص ٣١٢-٣١٤ .

فأهل السنة والجماعة إذن لا يأخذون دينهم علما وعملا إلا من القرآن والسنة، من خلال فهم صحابة رسول الله ﷺ الذي أخذوه عن نبيهم ونقلوه إلى تابعيهم ثم من أخذ عنهم واتبع سبيلهم من الأئمة وسلف الأمة لا يقدمون على ذلك أو يعارضونه بعقل أو رأي أو قياس أو ذوق أو وجد أو مكاشفة كائنا من كان صاحبها. وهذا هو الأصل الأول الذي يميز أهل السنة ويصبغ جماعتهم بصبغة خاصة ويشكل الملامح العامة والمواصفات السلوكية والأخلاقية لهذه الجماعة بل ويفرز العقائد والأصول والقواعد الفقهية التي تكون في النهاية تراث هذه الجماعة .

الفصل الثاني
الملامح العامة لأهل السنة والجماعة

لما كان الأصل الأول الذي يتميز به أهل السنة والجماعة عن غيرهم هو الإلتزام (بسنة) رسول الله ﷺ والإلتزام (بجماعة) صحابته رضي الله عنهم فإن ذلك قد شكل لهم ملامح عامة يمكن من خلالها التعرف عليهم والإشارة إليهم وسط هذا الخضم من الفرق والتيارات والأهواء المختلفة .

(١) أهل السنة يجمعون الدين علماً وعملاً وظاهراً وباطناً :

فأهل السنة يجمعون الدين كله علما وعملا وظاهرا وباطنا ويتمسكون بالإسلام الخالص الذي بعث به محمد ﷺ وحفظه عنه صحابته رضي الله عنهم .

— (اعتقاد الفرقة الناجية هي الفرقة التي وصفها النبي ﷺ بالنجاة : حيث قال « تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، إثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي ﷺ ، وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية) ج ٣ ص ١٧٩ .

— (وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدا ﷺ ، لكن لما أخبر النبي ﷺ « أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة — وهي الجماعة — » وفي حديث عنه ﷺ أنه قال : « هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب : هم أهل السنة والجماعة) ج ٣ ص ١٥٩ .

(٢) أهل السنة هم أهل الجماعة:

وأهل السنة لما كانوا يجمعون الدين كله ويقومون به كله ، فإنهم (اجتمعوا) على ذلك ، لأن الجماعة ، سبب ونتيجة ، طاعة ورحمة ، فمن طاعة الله المحافظة على الجماعة ، ومن رحمة الله بأهل طاعته المحافظة على جماعتهم .

— (إن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين ، والعمل به كله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما أمر به باطنا وظاهرا .

وسبب الفرقة : ترك حظ مما أمر العبد به ، والبغي بينهم .

ونتيجة الجماعة : رحمة الله ورضوانه وصلواته ، وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه .

ونتيجة الفرقة : عذاب الله ولعنته ، وسواد الوجوه ، وبراءة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة ، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين ، فلا تكون طاعة الله ورحمته بفعل لم يأمر الله به ، من اعتقاد أو قول أو عمل ، فلو كان القول أو العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به ، لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته) ج ١ ص ١٧ .

— (فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب) ج ٣ ص ٤٢١ .

(٣) أهل السنة هم اهل التوسط والاعتدال:

وأهل السنة والجماعة هم أهل التوسط والاعتدال بين الإفراط والتفريط وبين الغلو والجفاء ، فهم وسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة وسط في الملل .

— (وهذا (الصراط المستقيم) هو دين الإسلام المحض ، وهو ما في كتاب الله تعالى وهو (السنة والجماعة). فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض ، فإن النبي ﷺ رُوى عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد كالإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم أنه قال : « ستفترق هذه الأمة على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » وفي رواية « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وهذه الفرقة الناجية (أهل السنة) وهم وسط في النحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل) ج ٣ ص ٣٦٩ .

— (وكذلك في سائر (أبواب السنة) هم وسط ، لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) ج ٣ ص ٣٧٥ .

— (هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم : فهم وسط في (باب صفات الله) سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهه ، وهم وسط في (باب أفعال الله تعالى) بين القدرية والجبرية . وفي (باب وعيد الله) بين المرجئة والوعيدية ، من القدرية وغيرهم .

وفي (باب أسماء الإيمان والدين) بين الحرورية والمعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية .

وفي (أصحاب رسول الله) ﷺ : بين الروافض والخوارج) ج ٣ ص ١٤١ .

(٤) أهل السنة هم الجمل الثابتة بالقرآن والسنة والإجماع:

وأهل السنة إذن هم أهل الجمل الثابتة بالقرآن والسنة والإجماع ، الملتزمون بالدين الذي أتى به رسول الله ﷺ ، لا دين الفلاسفة والمتكلمين .

— (من جمع (الخصال الثلاث) التي هي جماع الصلاح وهي : الإيمان بالخلق ، والبعث : بالمبدأ والمعاد : الإيمان بالله واليوم الآخر . والعمل الصالح : وهو أداء المأمور به وترك المنهي عنه ، فإن له حصول الثواب وهو أجره عند ربه ، واندفاع العقاب ، فلا خوف عليه مما أمامه ، ولا يحزن على ماوراءه) ج ١٢ ص ٤٦٩ .

(٥) أهل السنة هم الإمتداد التاريخي لأهل ملة الإسلام:

فأهل السنة إذن هم الأصل في أمة محمد ﷺ وهم الإمتداد الطبيعي والصحيح لأهل هذه الملة ، كما أن ملة محمد ﷺ هي الإمتداد الطبيعي والصحيح للملل الأنبياء السابقين . فأهل الفرق الأخرى إذن دخلاء على هذه الملة وأقليات شاذة خارجة عن المسار الأصلي والصحيح للأمة المسلمة .

— (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد : كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم ولفظه « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ،

وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » وفي لفظ « على ثلاث وسبعين ملة » وفي رواية قالوا : يارسول الله من الفرقة الناجية ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وفي رواية قال : هي « الجماعة ، يد الله على الجماعة ». ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة ، وهم الجمهور الأكبر ، والسواد الأعظم وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء ، ولاتبلغ الفرقة من هؤلاء قريبا من مبلغ الفرقة الناجية فضلا عن أن تكون بقدرها ، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة . وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع . فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة) ج ٣ ص ٢٤٥ .

* (٦) أهل السنة هم أهل الشريعة :

فأهل السنة هم أهل الشريعة التي سنها رسول الله ﷺ في كافة جوانب الدين من عقائد ومناهج للنظر وأفعال ومقاصد وعبادات وسياسات شرعية وغيرها .

— (فالسنة كالشريعة : هي ماسنه الرسول وما شرعه ، فقد يراد به ماسنه وشرعه من العقائد ، وقد يراد به ماسنه وشرعه من العمل ، وقد يراد به كلاهما فلفظ السنة يقع على معان كلفظ الشرعة ، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله : (شرعة ومنهاجا): سنة وسبيلا ، ففسروا الشرعة بالسنة ، والمنهاج بالسبيل . واسم (السنة) و (الشرعة) قد يكون في العقائد والأقوال ، وقد يكون في المقاصد والأفعال . فالأولى في طريقة العلم والكلام ، والثانية في طريقة الحال والسماع . وقد تكون طريقة العبادات الظاهرة والسياسات السلطانية) ج ١٩ ص ٣٠٧

* (٧) أهل السنة لا يأخذون إلا ما كان ثابتاً عن الرسول ﷺ والسلف الصالح :

وأهل السنة لا يأخذون إذن إلا مما كان ثابتا عن رسول الله ﷺ وماكان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم .

— (إن السنة التي يجب اتباعها ، ويحمد أهلها ويذم من خالفها : هي سنة رسول الله ﷺ : في أمور الاعتقادات ، وأمور العبادات ، وسائر أمور الديانات وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي ﷺ الثابتة عنه في أقواله وأفعاله وماتركه من قول وعمل . ثم ماكان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان) ج ٣ ص ٣٧٨ .

* (٨) أهل السنة هم أعلم الناس بأحوال الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله :

وأهل السنة هم أعلم الناس بأحوال صاحبها ﷺ وأقواله وأفعاله ، وأعظمهم محبة وموالاة لها ولأهلها .

— (إن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية : أهل الحديث والسنة ، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ . وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها ، تصديقا وعملا وحبا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها ، الذين يروون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة) ج ٣ ص ٣٤٧ .

* (٩) أهل السنة هم كل من يحب الحديث النبوي ويلتزم به :

وأهل السنة أو الحديث ليس مقصود بهم فقط المشتغلون بهذا الفن — علم الحديث — بل هم كل من يحب الحديث ويحي معانيه ويلتزم به ويدعو إليه سواء كان محدثا أم فقيها أم صوفيا أم أميرا أم عاميا .

* — (ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه ، أو كتابته ، أو روايته ، بل نعني بهم : كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرا وباطنا ، واتباعه باطنا وظاهرا وكذلك أهل القرآن . وأدنى خصلة في هؤلاء : محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما ، والعمل بما علموه من موجبهما ، ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم ، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم) ج ٤ ص ٩٥ .

* (١٠) أهل السنة متفاوتون في معرفة السنة والإلمام بها والصبر عليها :

— (السنة هي ماتلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وتلقاه عنهم التابعون ثم تابعوهم إلى يوم القيامة ، وإن كان بعض الأئمة بها أعلم وعليها أصبر) ج ٣ ص ٣٥٨ .

* (١١) أهل السنة تختلف اجتهاداتهم تبعاً لتفاوت علمهم بالسنة :

وأهل السنة لما كانوا متفاوتون في الإلمام بالسنة اختلفت اجتهاداتهم بناء على ذلك في بعض مسائل العلم بما قد يكون مخالفا للسنة الثابتة .

— (ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها : لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة) ج ٣ ص ٣٤٩ .

(١٢) أهل السنة يضبطون اختلاف اجتهاداتهم بالحرص على الوحدة والإئتلاف :

وأهل السنة والجماعة كانوا يختلفون فيما بينهم على المسائل العلمية والعملية ولكنهم يضبطون سلوكهم ــ مهما كان حجم الخلاف ــ بأدب الإختلاف من الود والألفة والإحترام المتبادل في إطار أساسي هو : المحافظة على الجماعة والإئتلاف وجمع الشمل ، ونبذ التفرق والإتهام .

— (إن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، وكان قد بُعث إلى ذوي أهواء متفرقة وقلوب مشتتة وآراء متباينة فجمع به الشمل وألف به بين القلوب وعصم به من كيد الشيطان .

ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن أن هذا الأصل ــ وهو الجماعة ــ عماد لدينه .. وقد كره النبي ﷺ من المجادلة ما يفضي إلى الإختلاف والتفرق .. فوصف الفرقة الناجية بأنهم المستمسكون بسنته ، وأنهم هم الجماعة .. وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾. وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة ، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين .. وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ، ولو كان كلما إختلف مسلمان في شيء تهاجرا ، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة) ج ٢٤ ص ١٧٠ .

— (وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها : وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية ، والمسائل العملية . ومازال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية) ج ٣ ص ٢٢٩ .

— (وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الإستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة . والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا إجتناب المحارم ،

بل يكتفون بالإيمان .. فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظيا .. والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام . وكلهم من أهل الإيمان والقرآن) ج ١٣ ص ٤١-٤٧ .

(١٣) أهل السنة لا يخرج الحق عنهم:

وأهل السنة بالرغم من هذا لايخرج الحق عن جماعتهم ، لأن جماعة أئمتهم وعلمائهم تقوم مقام النبوة في حفظ هذا الدين ، كل في المجال الذي يسره الله له .

— (وأما أهل العلم فكانوا يقولون : هم (الأبدال) لأنهم أبدال الأنبياء ، وقائمون مقامهم حقيقة ، ليسوا من المعدمين الذين لايعرف لهم حقيقة ، كل منهم يقوم مقام الأنبياء في القدر الذي ناب عنهم فيه : هذا في العلم والمقال ، وهذا في العبادة والحال ، وهذا في الأمرين جميعا) ج ٤ ص ٩٧ .

— (فيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى ، أولوا المناقب المأثورة ، والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال . الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم) ج ٣ ص ١٥٩ .

(١٤) أهل السنة هم الطائفة المنصورة:

وأهل السنة لما كانوا هم أهل الهدى ودين الحق ، ولما كان الله وعد بأن ينصر هذا الدين ويظهره على الدين كله ، كان أهل السنة هم أهل الطائفة المنصورة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ .

— (هم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ ، « لاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لايضرهم من خذلهم ولامن خالفهم حتى تقوم الساعة) ج ٣ ص ١٥٩ .

— (هم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة الظاهرون على الحق ، لأن الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسله معهم . وهم الذي وعد الله بظهوره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا) ج ٤ ص ٩٧ .

(١٥) أهل السنة بشر عاديون منهم الصديقون ومنهم العصاة :

وأهل السنة والجماعة بشر عاديون منهم الصديقون والشهداء ، ومنهم العصاة والدهماء ، ولكن الخير هو الغالب عليهم بالنسبة لغيرهم ، كما أن الشر غالب على غيرهم بالنسبة إليهم .

— (إن المنتسبين إلى السنة والحديث وإن كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم ، فالسنة في الإسلام كالإسلام في الملل ، كما أنه يوجد في المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد في غيرهم ، وإن كان كل خير في غير المسلمين فهو في المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبة إلى السنة — قد يوجد فيهم مايوجد في غيرهم — وإن كان كل خير في غير أهل السنة فهو فيهم أكثر ، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر) ج ١٢ ص ٤٥٥ .

(١٦) أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ :

أهل السنة والجماعة إذن هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ممن تمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، وأحبوا أصحابه ووالوهم وأخذوا عنهم الحديث النبوي الشريف علما وعملا ، فقها وسلوكا ، فهم الذين يرفعون شعار القرآن والسنة والإجماع ، فيتمسكون بجماعتهم ويلمون شملها ، ويحافظون على إئتلافها ، وينضوون تحت رايتها بعيدين عن رايات وشعارات الفرق الضالة من أهل الشذوذ والتفرق والأهواء والإختلاف ، وداخل جماعة أهل السنة يتفاوت الناس في العلم والعمل والخير والشر والعدل والظلم والصبر والبغي والكف والعدوان ، ولكنهم خلال ذلك يعلمون أن الإعتصام بالأخوة والموالاة والإئتلاف هو أصل جماعتهم وعماد دينهم وحقيقة هويتهم ورحمة ربهم لهم .

الفصل الثالث

الخصائص الأخلاقية والسلوكية لأهل السنة والجماعة

(١) أهل السنة خير الناس للناس :

أهل السنة والجماعة كما رأيناهم حملة ميراث النبوة في جانبيها العلمي والعملي ، ولاشك أن أبرز الجوانب العملية في الهدي النبوي هو الجانب الأخلاقي ، ولذلك فإن أخلاق النبوة — من الرحمة ومحبة الخير للناس واحتمال أذاهم والصبر على دعوتهم إلى آخر ذلك — هي المنبع الذي يستقي منه أهل السنة خصائصهم السلوكية والأخلاقية والتي لا تقل أهمية في منظور الحق عن ميراث العلم والهدي الذي اختص به الله هذه الفرقة الناجية بفضله ورحمته .

— (الرسول ﷺ بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين . فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية ، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس ، والرحمة لهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله ، فبعثه بالعلم والكرم والحلم : عليم هاد ، كريم محسن ، حليم صفوح ...

فهو يعلّم ويهدي ويصلح القلوب ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض . وهذا نعت الرسل كلهم ... وهذه سبيل من اتبعه .. وكذلك نعت أمته بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، قال أبو هريرة : كنتم خير الناس للناس : تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة ، فيجاهدون — يبذلون أنفسهم وأموالهم — لمنفعة الخلق وصلاحهم ، وهم يكرهون ذلك لجهلهم . كما قال أحمد في خطبته (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى . ويصبرون منهم على الأذى . يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله

أهل العمى . فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم . إلى آخر كلامه ....
وهو سبحانه وتعالى يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها ، وهو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات . وقد قيل أيضا وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات . ويحب السماحة ولو بكف من تمرات) ج ١٦ ص ٣١٣-٣١٧ .

(٢) أهل السنة يأتمون بالكتاب والسنة في جميع علاقاتهم :

وأهل السنة والجماعة في أخلاقهم وسلوكهم يأتمون بالكتاب والسنة سواء في علاقتهم مع بعضهم أو مع غيرهم .

— (يأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها وكل مايقولونه أو يفعلونه من هذا أو غيره ، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) ج ٣ ص ١٥٨ .

(٣) أهل السنة هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحفاظ على الجماعة

وأهل السنة لذلك هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا هو الأصل الأول والقاعدة العظيمة التي جعلتهم خير أمة أخرجت للناس، ولكنهم يقومون بذلك على ماتوجبه الشريعة فيلتزمون في نفس الوقت أصلا آخر وقاعدة أخرى عظيمة، هي الحفاظ على الجماعة وتأليف القلوب واجتماع الكلمة ونبذ التفرق والاختلاف .

— (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، على ماتوجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد ، والجمع والأعياد مع الأمراء — أبرارا كانوا أو فجارا — ويحافظون

على الجماعات ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه ﷺ . وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ج ٣ ص ١٥٨ .

— (ويجب على أولى الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشائخها أن يقوموا على عامتهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ) ج ٣ ص ٤٢٣ .

— (من الأمر بالمعروف : الأمر بالائتلاف والاجتماع ، والنهي عن الاختلاف والفرقة) ج ٣ ص ٤٢١ .

(٤) أهل السنة يحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة في المعروف :

وأهل السنة عندما يحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة ، يفعلون ذلك من منطلق العلم الشرعي والعمل به ، ولذلك — ومن نفس المنطلق — فهم يطيعون في طاعة الله ، ولايطيعون في معصية الله .

— (إن الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض ، جهاد من يستحق الجهاد — كهؤلاء القوم المسئول عنهم[1] — مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم ، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك ، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله . بل يطيعهم في طاعة الله ، ولا يطيعهم في معصية الله . إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديما وحديثا ، وهي واجبة على كل مكلف . وهي متوسطة بين طريقة الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشيء عن قل العلم ، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقا وإن لم يكونوا أبرارا) ج ٢٨ص ٥٠٨ .

---

(١) هم التتار الذين قدموا إلى الشام سنة ٦٩٩ هـ وكانوا قد انتسبوا إلى الإسلام وتكلموا بالشهادتين مع بقائهم بتحكيم الياسق فيما بينهم — وهو كتاب مجموع من الأحكام السماوية وبعضا مما وضعه جنكيز خان برأيه وهواه فصار في بنيه شرعا متبعا يقضون به في الأعراض والدماء — انظر مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٥٠١ .

(٥) أهل السنة يحملون أمانة العلم وأمانة المحافظة على الجماعة :

وأهل السنة والجماعة إذن يحملون أمانة مزدوجة لا يقل ثقل إحداهما عن الأخرى الأولى أمانة العلم والالتزام والدعوة والجهاد ، والأخرى أمانة المحافظة على الجماعة المسلمة بمعناها العام والشامل . وهم يسيرون في ذلك بميزان دقيق على هدى من الشرع الحكيم وحده متحررين من سلطة الهوى والف العادة وسيطرة المذهب أو الطريقة أو الطائفة أو ماشابه ذلك .

— (إنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، وتبليغ ماجاء به الرسل عن الله ، والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء . فيجب أن يعلم ماجاءت به الرسل ، ويؤمن به ، ويبلغه ، ويدعو إليه ، ويجاهد عليه ، وَيزن جميع ماخاض الناس فيه من أقوال وأعمال في الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله ، غير متبعين لهوى : من عادة أو مذهب أو طريقة أو رئاسة أو سلف ، ولا متبعين لظن : من حديث ضعيف أو قياس فاسد — سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل — أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله . فإن الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى) ج ١٢ ص ٤٦٧ .

(٦) أهل السنة ولاؤهم للحق وحده :

فاهل السنة والجماعة إذن ولاؤهم الأول للحق وحده ، ومن هذا المنطلق فإنهم ينظرون إلى كل فرد أو طائفة أو تجمع على هذا الأساس وحده وليس على أساس من التعصب الجاهلي للقبيلة أو المدينة أو المذهب أو الطريقة أو التجمع أو الزعامة .

— (وليس لأحد أن يعلق الحمد والذم ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة والصلاة واللعن ، بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك : مثل أسماء القبائل ، والمدائن ، والمذاهب ، والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ ، ونحو ذلك مما يراد به التعريف ... فمن كان مؤمنا وجبت موالاته من أي صنف كان . ومن كان كافرا وجبت معاداته من أي صنف كان ... ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطى من الموالاة بحسب إيمانه : ومن البغض بحسب فجوره ، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي ، كما يقوله الخوارج

والمعتزلة ، ولا يجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة) ج ٢٨ ص ٢٢٧-٢٢٩ .

(٧) أهل السنة يوالي بعضهم بعضا ولاءً عاما ويعذر بعضهم بعضا :

وأهل السنة والجماعة لذلك يوالون بعضهم البعض ولاء عاما بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة لحزب أو جماعة أو اتجاه أو اجتهاد معين ، بل الأصل أن يكونوا جميعا يدا واحدة ويعذرون بعضهم بعضا ولا يسارعون إلى الاتهام أو التضليل لبعضهم البعض .

— (الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله ، ويؤخر من أخره الله ورسوله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله وينهى عما نهى الله عنه ورسوله ، وأن يرضي بما رضي الله به ورسوله ، وأن يكون المسلمون يدا واحدة فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن يضلل غيره ويكّفره ، وقد يكون الصواب معه : وهو الموافق للكتاب والسنة ، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين : فليس كل من أخطأ يكون كافرا ولا فاسقا ، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان) ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٨) أهل السنة يوالون ويعادون على أساس الدين ولا يمتحنون الناس بما ليس من عند الله :

وأهل السنة والجماعة لا يمتحنون الناس بأمور ما أنزل الله بها من سلطان ، ولايتعصبون لأسماء أو شعارات أو تجمعات أو زعامات ، بل يوالون ويعادون على أساس الدين والتقوى ، ولا يتعصبون إلا لجماعة المسلمين بمعناها الحقيقي ، وهي الجماعة التي ترفع راية القرآن والسنة وهدي السلف الصالح رضي الله عنهم .

— (فالواجب الإقتصار في ذلك والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به ، فإن هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة . وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله ، مثل أن يقال

للرجل : أنت شكيلي أو قرفندي ؟ فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأئمة لاشكيلي ولاقرفندي والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول : لا أنا شكيلي ولا قرفندي : بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة ورسوله) ج ٣ ص ٤١٤ .

* — (بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم ، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي واليماني ، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري ، فلايجور لأحد أن يمتحن الناس بها ، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها بل أكرم الخلق عند الله اتقاهم من أي طائفة كان) ج ٣ ص ٤١٦ .

— (فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي أخرى بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى ، وقد برأ الله نبيه ﷺ ممن كان هكذا ، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلوا دماء من خالفهم ، وأما أهل السنة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله ، وأقل مافي ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره اتقى لله منه ! ....

وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ؟

وهذاالتفريق الذي حصل من الأمة : علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها ، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله .

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به ، وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب) ج ٣ ص ٤١٩-٤٢١

(٩) أهل السنة يعملون على تأليف القلوب واجتماع الكلمة :

وأهل السنة والجماعة يعملون دائما في إطار من الإجتماع والتآلف ومحبة الخير لكل المسلمين ، والعفو والتجاوز عن اساءة المسيء وخطأ المخطيء ، ودعوته الى الصواب ، والدعاء له بالهداية والرشاد والمغفرة .

— (تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين : تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .. وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنهى عن الفرقة والاختلاف ، وأهل هذا الأصل : هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة ، وجماع السنة : طاعة الرسول .

* وإني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين — فضلا عن أصحابنا — بشيء أصلا : لا باطنا ولا ظاهرا . ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلا . بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ماكان ، كل بحسبه ، ولايخلو الرجل : إما أن يكون مجتهدا مصيبا ، أو مخطئا ، أو مذنبا فالأول : مأجور مشكور ، والثاني : مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له ، والثالث : فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين .... وتعلمون أنا جميعا متعاونون على البر والتقوى : واجب علينا نصر بعضنا البعض أعظم مما كان وأشد ...

وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي .. وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم) ج ٢٨ ص ٥٠-٥٧ .

(١٠) أهل السنة يتناظرون في المسائل العلمية والعملية مع بقاء الألفة بينهم :

(وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ وكانوا يتناظرون في المسألة العلمية والعملية ، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين) ج ٢٤ ص ١٧٢ .

الفصل الرابع

الأصول التي اتفق عليها أهل السنة

أهل السنة والجماعة متفقون على أصول هامه[1] أصبحت علما عليهم وتمثل لب عقائدهم ، وكل فرقة مخالفة لهم تفاصلهم على واحد أو أكثر من هذه الأصول ، التي نستعرضها فيما يلي :

— (أما بعد :فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة — أهل السنة والجماعة — وهو : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر : خيره وشره) ج ٣ ص ١٢٩

*** (١) أهل السنة والجماعة عقيدتهم في صفات الله : إثبات بلا تكييف ، وتنزيه بلا تعطيل :**

* — (من الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون بأن الله سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لاسمي له ولاكفو له ، ولاند له ، ولايقاس بخلقه —

(١) لن نتعرض هنا للأصول التي اتفق عليها أهل الملة الاسلامية ككل أو ما تفرع عنها مما هو معلوم من الدين بالضرورة . وكذلك لن نتعرض لما هو مجمع عليه من مسائل الايجاب والتحريم الا بما لا يمس الاجمال المقصود هنا في هذا البحث ومما مجال تفصيله كتب الاحكام كالاجماع والقواعد والفروع الفقهية مثل تحريم المتعة وجواز المسح على الخفين وامثال ذلك مما قد يعد شعارا لأهل السنة والجماعة .

سبحانه وتعالى — فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلا ، وأحسن حديثا من خلقه .

ثم رسله صادقون مصدقون ، بخلاف الذين يقولون عليه ما لايعلمون ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين ، لسلامة ماقالوه من النقص والعيب .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين) ج ٣ ص ١٢٩-١٣٠ .

* (٢) **أهل السنة والجماعة عقيدتهم في القرآن : أنه كلام الله غير مخلوق :**

* — (إن مذهب سلف الأمة وأهل السنة أن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ... والتصديق بما ثبت عن النبي ﷺ : أن الله يتكلم بصوت ، وينادي آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث . فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة) ج ٣ ص ٤٠١-٤٠٢ .

* (٣) **أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله عز وجل لايراه أحد في الحياة الدنيا :**

* — (كل حديث فيه (أن محمداً ﷺ رأى ربه بعينه في الأرض) فهو كذب باتفاق المسلمين وعلمائهم ، هذا شيء لم يقله أحد من علماء المسلمين ولا رواه أحد منهم ..

وقد اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعينيه في الأرض وأن الله لم ينزل له إلى الأرض ...

وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت فدعواه باطل باتفاق أهل السنة والجماعة ، لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحدا من المؤمنين لايرى ربه بعيني رأسه حتى يموت . وثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس ابن سمعان عن النبي ﷺ، أنه لما ذكر الدجال قال: «واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت») ج٣ ص٣٨٦-٣٨٩

* (٤) **أهل السنة والجماعة متفقون على رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار في الجنة :**

— (رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة . وهي أيضا للناس في عرصات القيامة كما تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ ..

هذه الأحاديث وغيرها في الصحاح ، قد تلقاها السلف والأئمة بالقبول ، واتفق عليها أهل السنة والجماعة .

وإنما يكذب بها أو يحرفها (الجهمية) ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم : الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك ، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة . ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسوله ﷺ في الآخرة ، وبين تصديق الغالية ، بأنه يرى بالعيون في الدنيا ، وكلاهما باطل ..

ومذهب جميع المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتاب أن الله سبحانه خالق العالمين ، ورب السموات والأرض ومابينهما ، ورب العرش العظيم ، والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه .

* وهو سبحانه فوق سمواته ، على عرشه ، بائن من خلقه ، ومع هذا فهو معهم أينما كانوا) ج ٣ ص ٣٩٠-٣٩٣

* (٥) **أهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت :**

— (ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت : فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر ، وبنعيمه .. إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الارواح إلى الأجساد .. ويقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا ، وتدنو منهم الشمس ، ويلجمهم العرق .

وتنصب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد وتنشر الدواوين — وهي صحائف الأعمال — فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره .. ويحاسب الله الخلائق ، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة .

* وأما الكفار : فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ، فإنه لا حسنات لهم ، ولكن تعد أعمالهم وتحصى ، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها .

* وفي عرصة القيامة : الحوض المورود لمحمد ﷺ .. والصراط منصوب على متن جهنم — وهو الجسر الذي بين الجنة والنار — يمر الناس عليه على قدر أعمالهم .. ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم .. فمن مر على الصراط دخل الجنة . فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض . فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، وأول من يستفتح باب الجنة : محمد ﷺ ، وأول من يدخل الجنة من الأمم : أمته .

* وله ﷺ — في القيامة — ثلاث شفاعات :

أما الشفاعة الأولى : فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم .

وأما الشفاعة الثانية : فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وهاتان الشفاعتان خاصتان له .

* وأما الشفاعة الثالثة : فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم . فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها . ويخرج الله تعالى من النار أقواما بغير شفاعة ، بل بفضله ورحمته . ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا ، فينشىء الله لها أقواما فيدخلهم الجنة) ج ٣ ص ١٤٥-١٤٨

* **(٦) أهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر بجميع درجاته :**

— (وتؤمن الفرقة الناجية — أهل السنة والجماعة — بالقدر : خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين :

* — فالدرجة الأولى :

أ — الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال .

ب — ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق .. وهذا التقدير — التابع لعلمه سبحانه — يكون في مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب في اللوح المحفوظ ماشاء . وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه

ملكا ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال له : اكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أو سعيد ، ونحو ذلك

فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ، وينكره اليوم قليل

* — وأما الدرجة الثانية :

أ — فهو مشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وأنه مافي السموات والارض من حركة ولاسكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لايكون في ملكه إلا مايريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات . فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه ، لاخالق غيره ولا رب سواه .

ب — ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته . وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد . والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلي والصائم . وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم .

وهذه الدرجة من القدر ، يكذب بها عامة القدرية ، الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة . ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات ، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها) ج ٣ ص ١٤٨-١٥٠

(٧) أهل السنة والجماعة يقولون : إن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص

* — (ومن أصول أهل السنة : إن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح . وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) ج ٣ ص ١٥١ .

— (وأما أهل السنة والجماعة) من الصحابة جميعهم والتابعين ، وأئمة أهل السنة والحديث ، وجماهير الفقهاء والصوفية . مثل مالك ، والثوري ،

والأوزاعي ، وحماد بن زيد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . ومحققي أهل الكلام . فاتفقوا على أن الإيمان والدين قول وعمل ، هذا لفظ السلف من الصحابة وغيرهم . وإن كان قد يعني بالإيمان في بعض المواضع ما يغاير العمل ، لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضا في مسمى الدين ، والإيمان . ويدخل في القول : قول القلب واللسان . وفي العمل : عمل القلب والجوارح) ج ١٢ ص ٤٧١ .

* (٨) **أهل السنة يعتقدون أن الإيمان أصل وفروع وأن الإيمان لايزول إلا بزوال أصله ولذلك فهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بمطلق المعاصي . إلا أن يزول أصل الإيمان :**

* — (وقال المفسرون لمذهبهم[١]: إن له أصولا وفروعا ، وهو مشتمل على أركان ، وواجبات — ليست بأركان — ومستحبات . بمنزلة الحج والصلاة وغيرهما من العبادات . فإن اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل وترك .. ثم الحج مع هذا مشتمل على أركان متى تُركت لم يصح الحج : كالوقوف بعرفة . وعلى ترك محظور متى فعله فسد الحج وهو الوطء . ومشتمل على واجبات من فعل وترك يأثم بتركها عمدا .. ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها ، فلا يأثم بتركها .. ولكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم منه حجا .. ومن أخل بركن الحج أو فعل مفسده فحجه فاسد لا يسقط به فرض .. وكذلك في (الأعيان المشهودة) فإن الشجرة مثلا اسم لمجموع الجذع والورق والأغصان وهي بعد ذهاب الورق شجرة ، وبعد ذهاب الأغصان شجرة ، لكن كاملة وناقصة ، فليقل مثل ذلك في مسمى الإيمان والدين . إن (الإيمان ثلاث درجات) : إيمان السابقين المقربين ، وهو ماأتى فيه بالواجبات والمستحبات من فعل وترك . وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين ، وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك . وإيمان الظالمين ، وهو مايترك فيه بعض الواجبات أو يفعل فيه بعض المحظورات .

(١) أي المفسرون لمذهب أهل السنة .

* ولهذا قال علماء السنة في وصفهم (اعتقاد أهل السنة والجماعة) : إنهم لا يكفّرون أحدا من أهل القبلة بذنب . إشارة إلى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوبْ ، فأما أصل الإيمان الذي هو : الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقا وانقيادا له ، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن .. فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة وأن قليله يُخرج الله به من النار من دخلها . ليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة إنه لا يقبل التبعيض والتجزئة بل هو شيء واحد إما أن يحصل كله أو لا يحصل منه شيء) ج ١٢ ص ٤٧٢-٤٧٥ .

* — (وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما يفعله الخوارج ، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي .. ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة ، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان .. وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق ... ويقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته . فلا يعطى الإسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الإسم) ج ٣ ص ١٥١-١٥٢ .

* (٩) **أهل السنة والجماعة متفقون على جواز اجتماع العذاب والثواب في حق الشخص الواحد ولكنهم في الوقت نفسه لا يوجبون العذاب أو الثواب لمعين إلا بدليل خاص :**

* — (إن اللعنة من (باب الوعيد) فيحكم بها عموما . وأما المعين فقد يرتفع عنه الوعيد لتوبة صحيحة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو غير ذلك من الأسباب التي ضررها يرفع العقوبة عن المذنب . فهذا في حق من له ذنب محقق .. ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص ، ولا يشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص ، ولا يشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم في العموم ، لأنه قد يندرج في العمومين فيستحق الثواب والعقاب) ج ٣٥ ص ٦٦-٦٨ ، ص ٢٨٢ .

— (وأهل السنة والجماعة ، وسائر من اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين — العذاب والثواب — في حق خلق كثير . كما جاءت به السنن المتواترة عن النبي ﷺ . وأيضا فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب في حق

كل من أتى كبيرة ، ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها ، بل يجوز عندهم أن صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب ، إما لحسنات تمحو كبيرته منه أو من غيره ، وإما لمصائب كفرتها عنه ، وإما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه ، وإما لغير ذلك)
ج ١٢ ص٤٨٠

* — ولا نشهد لمعين أنه في النار ، لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه : لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه ، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وإنتفاء مانعه) ج ١٢ ص ٤٨٤ .

* **(١٠)أهل السنة والجماعة يحبون ويتولون صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته وأزواجه دون أن يعتقدوا بعصمة أحد غير رسول الله ﷺ :**

* — (ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ... ويقبلون ماجاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ، فيفضلون من أنفق من قبل الفتح — وهو صلح الحديبية — وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر — وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر — [اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم] ، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ... ، ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ... ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وعن غيره ، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر .. ويؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ... ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ... ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة ، خصوصا خديجة رضي الله عنها .. والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ..

* ويمسكون عما شجر بين الصحابة .. ويقولون : هم فيه معذورون ، إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون .. وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل مايوجب مغفرة مايصدر منهم إن صدر .. وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ : « إنهم خير القرون » ... أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة ، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى) ج٣ ص ١٥٢-١٥٦ .

* **(١١)أهل السنة والجماعة يصدقون بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات :**

— (ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات ، في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات ، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة ، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة) ج ٣ ص ١٥٦ .

* **(١٢)أهل السنة والجماعة مجمعون على قتال من خرج عن شريعة الإسلام ، وإن تكلم بالشهادتين :**

— (ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام ، وإن تكلم بالشهادتين .. وقتال هؤلاء واجب ابتداء بعد بلوغ دعوة النبي ﷺ إليهم بما يقاتلون عليه . فأما إذا بدأوا المسلمين فيتأكد قتالهم .. فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين ، فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم ، وعلى غير المقصودين ، لإعانتهم .. وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله ، مع القلة والكثرة ، والمشي والركوب ، كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله في تركه لأحد — أي الجهاد —... فهذا دفع عن الدين والحرمة والأنفس، وهو قتال اضطرار) ج ٢٨ ص ٣٥٧—٣٥٩ .

(١٣)أهل السنة والجماعة يغزون مع أمرائهم أبرارا كانوا أم فجارا من أجل إقامة شرائع الإسلام :

— (ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ .. فإنه لابد من أحد أمرين : إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضررا في الدين والدنيا . وإما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، وإقامة أكثر شرائع الإسلام ، وإن لم يمكن إقامة جميعها . فهذا هو الواجب في هذه الصورة ، وكل ما أشبهها بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا على هذا الوجه) ج ٢٨ ص ٥٠٦ .

الفصل الخامس

أمور يقبل فيها الخلاف داخل أهل السنة والجماعة

*** أهل السنة والجماعة يقبلون فيما بينهم تعدد الاجتهادات في بعض الأمور التي نقل عن السلف النزاع فيها دون أن يضلل المخالف في هذه المسائل . نذكر من هذه المسائل على سبيل المثال لا الحصر مايلي :**

* ١— (بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي — رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر — أيهما أفضل ، فقدم قوم عثمان وسكتوا ، أو ربعوا بعلي ، وقدم قوم عليا ، وقوم توقفوا . لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان . وإن كانت هذه المسألة — مسألة عثمان وعلي — ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي (مسألة الخلافة)، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي . ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله) ج ٣ ص ١٥٣ .

* ٢— (والقسم الثاني من الكلام : ما يكون قد قاله بعض السلف أو بعض العلماء أو بعض الناس ، ويكون حقا ، أو مما يسوغ فيه الاجتهاد ، أو مذهبا لقائله .. وهذه المسائل وإن كان غالبها موافقا لأصول السنة ، ففيها ما إذا خالفه الإنسان لم يحكم بأنه مبتدع ، مثل أول نعمة أنعم بها على عبده ، فإن هذه المسألة فيها نزاع بين أهل السنة ، والنزاع فيها لفظي لأن مبناها على أن اللذة التي يعقبها ألم ، هي تسمى نعمة أم لا) ج ٣ ص ٣٨٦ .

* ٣ــ (فعائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في ان محمداً ﷺ رأى ربه . قالت : « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية ». وجمهور الأمة على قول ابن عباس ، مع أنهم لا يبدعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكذلك أنكرت أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحى ، لما قيل لها : أن النبي (ﷺ) قال : « ماأنتم بأسمع لما أقول منهم » فقالت : إنما قال : انهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم الحق . ومع هذا فلا ريب أن الموتى يسمعون خفق النعال ، كما ثبت عن رسول الله (ﷺ) : « وما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » صح ذلك عن النبي (ﷺ) الأحاديث ، وأم المؤمنين تأولت ، والله يرضى عنها ، وكذلك معاوية نقل عنه في أمر المعراج انه قال : إنما كان بروحه . والناس على خلاف معاوية ــ رضي الله عنه ــ ومثل هذا كثير .

وأما الاختلاف في « الأحكام » فأكثر من ان ينضبط ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا ، لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة ، ولقد كان أبو بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير ، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بني قريظة : « لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فادركتهم العصر في الطريق ، فقال قوم : لا نصلي إلا في بني قريظة ففاتهم العصر . وقال قوم : لم يرد منا تأخير الصلاة ، فصلوا في الطريق فلم يعب واحداً من الطائفتين » . أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر . وهذا وإن كان في الأحكام فما لم يكن في الأصول المهمة فهو ملحق بالأحكام) ج ٢٤ ص ١٧٢-١٧٤

* ٤ــ (وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، وأما الأعمال الأربعة فاختلفوا في تكفير تاركها . ونحن إذا قلنا : أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب ، فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب ، أما هذه المباني : ففي تكفير تاركها نزاع مشهور) ج ٧ ص ٣٠٢ .

* ٥ــ (وكذلك تنازع المسلمون في الوضوء خروج الدم بالفصاد والحجامة والجرح والرعاف ، وفي «القيء» وفيه قولان مشهوران وقد نقل عن النبي (ﷺ) أنه

توضأ من ذلك ، وعن كثير من الصحابة لكن لم يثبت قط أن النبي (ﷺ) أوجب الوضوء من ذلك ، بل كان أصحابه يخرجون في المغازي فيصلون ولايتوضؤن ، ولهذا قال طائفة من العلماء ، ان الوضوء من ذلك مستحب غير واجب ، وكذلك قال في الوضوء «من مس الذكر» و «مس المرأة لشهوة» إنه يستحب الوضوء من ذلك ولايجب ، وكذلك قالوا في «الوضوء من القهقهة» و «مما مست النار» إن الوضوء من ذلك يستحب ولايجب ، فمن توضأ فقد أحسن ، ومن لم يتوضأ فلاشيء عليه . وهذا أظهر الأقوال ، وليس المقصود ذكر هذه المسائل بل المقصود ضرب المثل بها . وكذلك تنازعوا في كثير من مسائل الفرائض كالجد والمشركة وغيرهما وفي كثير من مسائل الطلاق والإيلاء وغير ذلك ، وفي كثير من مسائل العبادات في الصلاة والصيام والحج ، وفي مسائل زيارات القبور ، منهم من كرهها مطلقاً ومنهم من أباحها ، ومنهم من استحبها إذا كانت على الوجه المشروع ، وهو قول أكثرهم . وتنازعوا في «السلام على النبي ﷺ» هل يسلم عليه في المسجد وهو مستقبل القبلة ؟ أو مستقبل الحجرة ؟ وهل يقف بعد السلام يدعو له ، أم لا ؟ وتنازعوا أي المسجدين أفضل : المسجد الحرام أو مسجد النبي ﷺ) ج ٣٥ ص ٣٥٨-٣٦٠

الفصل السادس

الصفات العامة للمفارقين للسنة والجماعة

*(١) الجهل بالحق والحكم بالهوى :

المفارقون للسنة يدفعهم إلى ذلك أمران رئيسيان : الأول هو الجهل بالحق فيحكمون بالظن بلا علم ، والثاني الهوى فيحكمون بالظلم بلا عدل .

* — (وقد يكون أولهم خرج على عهد رسول الله ﷺ ، فلما رأى قسمة النبي ﷺ قال : يامحمد اعدل فانك لم تعدل ، فقال له النبي ﷺ : « لقد خبت وخسرت إن لم أعدل » . فقال له بعض أصحابه : (دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم » ... الحديث .

* فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى . كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه) ج ٣ ص ٣٥٠ .

(٢) تضارب آرائهم والتفرق والمعاداة :

والمفارقون للسنة يدفعهم الجهل والهوى إلى كثرة الآراء وتضاربها واختلافها من جهة وإلى التفرق والشقاق والمعاداة من جهة أخرى .

— (إن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، لاسيما المتأخرون من الأمة الذين لم يحكموا معرفة الكتاب والسنة ، والفقه فيهما ، ويميزوا بين صحيح الأحاديث وسقيمها ، وناتج المقاييس وعقيمها . مع ماينضم

إلى ذلك من غلبة الأهواء ، وكثرة الآراء ، وتغلظ الاختلاف ، والافتراق ، وحصول العداوة والشقاق .

فإن هذه الأسباب ونحوها مما يوجب (قوة الجهل والظلم) اللذين نعت الله بهما الإنسان في قوله ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾. فإذا من الله على الإنسان بالعلم والعدل أنقذه من هذا الضلال) ج ٣ ص ٣٧٨ .

* (٣) الغلو في الدين :

والمفارقون للسنة قد يدفعهم إلى ذلك أيضا الغلو الذي ذمه الله ورسوله ﷺ .

— (فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة حتى أمر النبي ﷺ بقتالهم فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضا من الإسلام والسنة ، حتى يدعي السنة من ليس من أهلها ، بل قد مرق منها وذلك بأسباب منها الغلو الذي ذمه الله تعالى في كتابه حيث قال : ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق ..﴾ الآية .. وقال النبي ﷺ : « إياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » وهو حديث صحيح .

ومنها التفرق والاختلاف الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز .

ومنها أحاديث تروى عن النبي ﷺ وهي كذب عليه باتفاق أهل المعرفة ، يسمعها الجاهل بالحديث فيصدق بها لموافقة ظنه وهواه .

(وأضل الضلال) اتباع الظن والهوى ، كما قال الله تعالى في حق ذمهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾. وقال في حق نبيه ﷺ : ﴿ والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾، فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم : فالضال هو الذي لا يعلم الحق ، والغاوي الذي يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحي أوحاه الله إليه ، فوصفه بالعلم ، ونزهه عن الهوى) ج ٣ ص ٣٨٣ .

* (٤) الجهل بالحق والنفاق :

والمفارقون للسنة منهم قوم جهال بالدين ومنهم قوم منافقون ، ومنهم قوم سماعون للمنافقين يقبلون منهم وكل من هذه الأصناف قد يكون فتنة للصنف الآخر

— (قد يقع التنازع في تفصيل الكتاب فتارة يكون بين العلماء المعتبرين في (مسائل الاجتهاد)، وتارة يتنازع فيه قوم جهال بالدين ، أو منافقون ، أو سماعون للمنافقين . فقد أخبر الله سبحانه أن فينا قوما سماعين للمنافقين يقبلون منهم .. وكثيرا مايضيع الحق بين الجهال الأميين وبين المحرفين للكلم الذين فيهم شعبة نفاق .. فإما أن تضل الطائفتان ، ويصير كلام هؤلاء فتنة على أولئك حيث يعتقدون أن مايقوله الأميون هو غاية علم الدين ، ويصيروا على طرفي نقيض ، وإما يتبع أولئك الأميون أولئك المحرفين في بعض ضلالهم . وهذا من أسباب تغيير الملل . إلا أن هذا الدين محفوظ) ج ٢٥ ص ١٢٨-١٣١ .

* (٥) التعصب مع البغي على المخالف لهم :

والمفارقون للسنة مغالون في التعصب للأشخاص بلا علم ولا عدل ، ومغالون في التعصب في المسائل التي يسوغ فيا الاجتهاد مع البغي والعدوان على المخالف لهم .

— (فمن جعل شخصا من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة ، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة — كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك — كان من أهل البدع والضلال والتفرق) ج ٣ ص ٣٤٧ .

* — (من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفّر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه ، فهؤلاء من أهل التفرق والاختلاف) ج ٣ ص ٣٤٩ .

*** (٦) ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة :**

والمفارقون للسنة يوالون ويعادون على شخص غير رسول الله ﷺ وعلى كلام غير كلام الله ورسوله ﷺ وما اجتمعت عليه الأمة .

— (إن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء ، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل . ومن هنا يعرف ضلال من ابتدع طريقا أو اعتقادا زعم أن الإيمان لا يتم إلا به ، مع العلم بأن الرسول لم يذكره ،

* وما خالف النصوص فهو بدعة باتفاق المسلمين .. ويروى عن مالك رحمه الله أنه قال : إذا قل العلم ظهر الجفا ، وإذا قلت الآثار كثرت الأهواء ، ولهذا تجد قوما كثيرين يحبون قوما ويبغضون قوما لأجل أهواء لا يعرفون معناها ولادليلها ، بل يوالون على إطلاقها أو يعادون من غير أن تكون منقولة نقلا صحيحا عن النبي ﷺ وسلف الأمة ، ومن غير أن يكونوا هم يعقلون معناها ، ولايعرفون لازمها ومقتضاها . وسبب هذا إطلاق أقوال ليست منصوصة ، وجعلها مذاهب يدعى إليها ، ويوالي ويعادي عليها ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته : « إن أصدق الكلام كلام الله .. الخ » فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة ، وماتنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول . وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادي عليها ، غير النبي ﷺ ، ولاينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي ، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة . بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون . والخوارج إنما تأولوا آيات من القرآن على ما اعتقدوه ، وجعلوا من خالف ذلك كافرا ، لاعتقادهم أنه خالف القرآن ، فمن ابتدع أقوالا ليس لها أصل في القرآن وجعل من خالفها كافرا كان قوله شرا من قول الخوارج) ج ٢٠ ص ١٦٣-١٦٤ .

*** (٧) البغي والاعتداء والتفريط :**

والمفارقون للسنة منهم المغالون الباغون المعتدون ومنهم المفرطون الجاهلون .

* — (صار كثير من أهل البدع مثل الخوارج والروافض والقدرية والجهمية والممثلة : يعتقدون اعتقادا هو ضلال يرونه هو الحق ، ويرون كفر من خالفهم في ذلك ، فيصير منهم شوب قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق . ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفر (بالمقالة) التي لاتفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها .

وإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة كما يجب ، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه ، وماعرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه ، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة ، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم ، بل لعلهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذما مطلقا ، لا يفرقون فيه بين مادل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، ومايقوله أهل البدعة والفرقة ، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع ، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة وبعض المتفقهة والمتصوفة والمتفلسفة ، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام . وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة) ج ١٢ ص ٤٦٦-٤٦٧ .

*** (٨) تكفير وتفسيق مخالفهم في الاجتهاد والتأويل :**

المفارقون للسنة لايتحملون الاجتهاد أو التأويل المخالف بل يضيفون إلى ترك السنة اعتقادات باطلة في المخالف لهم من تفسيق وتكفير وتخليد ، ثم يرتبون على ذلك أحكاما ابتدعوها في حق المخالف من استحلال الدماء والأموال وغير ذلك .

* — (إن أهل البدع شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع .. وقد قررت هذه القاعدة بالدلائل الكثيرة مما تقدم من القواعد . ثم إن أهل المعاصي ذنوبهم فعل بعض مانهوا عنه من سرقة أو زنا أو شرب خمر أو أكل مال بالباطل وأهل البدع ذنوبهم ترك ماأمروا به من اتباع السنة وجماعة المؤمنين .. فإن قيل : قد يضمون إلى ذلك اعتقادا محرما ، من تكفير وتفسيق وتخليد ، قيل هم في ذلك مع أهل السنة بمنزلة الكفار مع المؤمنين ،

فنفس ترك الإيمان بما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ضلالة وإن لم يكن معه اعتقاد وجودي ، فإذا انضم إليه اجتمع الأمران . ولو كان معهم أصل من السنة لما وقعوا في البدعة) ج ٢٠ ص ١٠٣-١٠٥ .

* — (وكان سبب خروج الخوارج مافعله أمير المؤمنين عثمان وعلي ومن معهما من الأنواع التي فيها تأويل ، فلم يحتملوا ذلك ، وجعلوا موارد الاجتهاد ، بل الحسنات ذنوبا ، وجعلوا الذنوب كفرا ، ولهذا لم يخرجوا في زمن أبي بكر وعمر ، لانتفاء تلك التأويلات وضعفهم) ج ٢٨ ص ٤٨٩ .

— (فهؤلاء أصل ضلالهم : اعتقادهم في أئمة الهدى وجماعة المسلمين أنهم خارجون عن العدل ، وأنهم ضالون ، وهذا مأخذ الخارجين عن السنة من الرافضة ونحوهم ، ثم يعدون مايرون أنه ظلم عندهم كفرا ، ثم يرتبون على الكفر أحكاما ابتدعوها ، فهذه ثلاث مقامات للمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم ، في كل مقام تركوا بعض أصول دين الإسلام ، حتى مرقوا منه كما مرق السهم من الرمية) ج ٢٨ ص ٤٩٧ .

*** (٩) يقرنون بين الخطأ والإثم :**

والمفارقون للسنة سقطوا في هذه البدع وفي غيرها لأنهم يقرنون بين الخطأ والإثم .

— (فأما الصديقون والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين ، وهذا في الذنوب المحققة ، وأما مااجتهدوا فيه : فتارة يصيبون ، وتارة يخطئون ؛ فإذا مااجتهدوا فأصابوا فلهم أجران ، وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم ، وخطؤهم مغفور لهم . وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين ، فتارة يغلون فيهم ، ويقولون : أنهم معصومون ، وتارة يجفون عنهم ، ويقولون : إنهم باغون بالخطأ . وأهل العلم والإيمان لا يعصمون ، ولا يؤثمون . ومن هذا الباب تولد كثير من فرق أهل البدع والضلال) ج ٣٥ ص ٦٩-٧٠.

*** (١٠) يخرجون عن السنة والجماعة ويبادرون أهل السنة بالبغي والظلم والعدوان :**

فالمفارقون للسنة إذن يقدمون بين يدي الله ورسوله : فيخرجون عن السنة أولا ، ثم يبادرون أهل السنة بالبغي والظلم والعدوان ، فيخرجون عن الجماعة ثانيا . وهذا هو الأصل الذي تدور حوله وتتولد منه البدع والأهواء

* — (أول البدع ظهورا في الإسلام وأظهرها ذما في السنة والآثار : بدعة الحرورية المارقة .. ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم :

* — إحداهما : خروجهم عن السنة ، وجعلهم ماليس بسيئة سيئة ، أو ماليس بحسنة حسنة ، وهذا الوصف تشترك فيه البدع المخالفة للسنة ، فقائلها لابد أن يثبت مانفته السنة وينفي ماأثبتته السنة ، ويحسن ماقبحته السنة أو يقبح ماحسنته السنة ، وإلا لم يكن بدعة وهذا القدر قد يقع من بعض أهل العلم خطأ في بعض المسائل ، لكن أهل البدع يخالفون السنة الظاهرة المعلومة . والخوارج جوزوا على الرسول نفسه أن يجور ويضل في سنته ، ولم يوجبوا طاعته ومتابعته ، وإنما صدقوه فيما بلغه من القرآن دون ماشرعه من السنة التي تخالف — بزعمهم — ظاهر القرآن ، وغالب أهل البدع غير الخوارج يتابعونهم في الحقيقة على هذا ، فإنهم يرون أن الرسول لو قال بخلاف مقالتهم لما اتبعوه ..

— الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع : أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات ، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأن دار الاسلام دار حرب ودارهم دار الإيمان . وكذلك يقول جمهور الرافضة ، وجمهور المعتزلة ، والجهمية ، وطائفة من غلاة المنتسبين إلى أهل الحديث والفقه ومتكلميهم .

فهذا أصل البدع التي ثبت بنص سنة رسول الله ﷺ وإجماع السلف أنها بدعة ، وهو جعل العفو سيئة وجعل السيئة كفرا ، فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين ، وما يتولد عنهما من بغض المسلمين وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم وأموالهم . وهذان الأصلان هما خلاف السنة

والجماعة ، فمن خالف السنة فيما أتت به أو شرعته فهو مبتدع خارج عن السنة ، ومن كفّر المسلمين بما رآه ذنبا سواء كان دينا أو لم يكن دينا وعاملهم معاملة الكفار فهو مفارق للجماعة . وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين .

* أما الأول فشبه التأويل الفاسد أو القياس الفاسد : إما حديث بلغه عن الرسول لا يكون صحيحا ، أو أثر عن غير الرسول قلده فيه ولم يكن ذلك القائل مصيبا ، أو تأويل تأوله من آية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ صحيح أو ضعيف، أو أثر مقبول أو مردود ، ولم يكن التأويل صحيحاً . وإما قياس فاسد أو رأي رآه اعتقده صوابا وهو خطأ. فالقياس والرأي والذوق هو عادة خطأ المتكلمة والمتصوفة وطائفة من المتفقهة . وتأويل النصوص الصحيحة أو الضعيفة عامة خطأ طوائف المتكلمة والمحدثة والمقلدة والمتصوفة والمتفقهة . وأما التكفير بذنب أو اعتقاد سني فهو مذهب الخوارج . والتكفير باعتقاد سني مذهب الرافضة والمعتزلة وكثير من غيرهم . وأما التكفير باعتقاد بدعي فقد بينته في غير هذا الموضع[1]. ودون التكفير قد يقع من البغض والذم والعقوبة — وهو العدوان — أو من ترك المحبة والدعاء والإحسان — وهو التفريط — ببعض هذه التأويلات مما لايسوغ وجماع ذلك ظلم في حق الله تعالى أو في حق المخلوق . كما بينته في غير هذا الموضع . ولهذا قال أحمد بن حنبل لبعض أصحابه : أكثر مايخطىء الناس من جهة التأويل والقياس) ج ١٩ ص ٧١-٧٥

(١) ج ١٢ ص ٤٦٤ وبعدها .

الفصل السابع

حكم المخالفين للسنة

المخالفون للسنة بعضهم مجتهد مخطىء وبعضهم جاهل معذور أو متعد ظالم وبعضهم منافق زنديق وبعضهم مشرك ضال :

(١) المجتهد المخطىء :

المخالفون للسنة كثير منهم من خالف السنة لإجتهاد خاطىء استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق، أو لنقص في العلم الشرعي لاحيلة لهم فيه، أو لنوع من التأويل خاصة مع ورود الشبهات من المخالف، ولكنهم في ذلك كله لايقدمون بين يدي الله ورسوله ولايتعمدون مخالفة الله ورسوله، بل هم مؤمنون باطنا وظاهرا بالله ورسوله

— (اعتقاد الفرقة الناجية هي الفرقة التي وصفها النبي ﷺ بالنجاة ، حيث قال : « تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية .. وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا فإن المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ماتقوم به عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات مايمحو الله به سيئاته ، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول ، والقانت ، وذو الحسنات الماحية ، والمغفور له وغير ذلك : فهذا أولى . بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا ، وقد لا يكون ناجيا ، كما يقال : من صمت نجا) ج ٣ ص ١٧٩ .

* — (وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان ، فهذا عام عموما محفوظا ، وليس في الدلالة الشرعية مايوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئا على خطئه ، وإن عذب المخطىء من غير هذه الأمة ...

* وأيضا فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد ابلاغ الرسالة ، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا ، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ماقامت عليه الحجة الرسالية ...

فمن كان قد آمن بالله ورسوله ، ولم يعلم بعض ماجاء به الرسول ، فلم يؤمن به تفصيلا : إما أنه لم يسمعه ، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها ، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به . فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ، ما يوجب أن يثيبه الله عليه ، ومالم يؤمن به فلم تقم عليه الحجة التي يكفر مخالفها .

* وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ، ما لايكفر مخالفه ، بل ولا يفسق ، بل ولا يأثم ، مثل الخطأ في الفروع العملية .. ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم ، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا ، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر واستحلال آخرين للقتال في الفتنة) ج ١٢ ص ٤٩٠-٤٩٥ .

(٢) الجاهل المعذور :

أ — منهم من خالف السنة لقلة اعتمادهم على القرآن والسنة :

والمخالفون للسنة بعضهم وخاصة المتأخرين قل اعتمادهم على القرآن والسنة ولجأوا إلى مقالات ابتدعها شيوخهم دون أن يعلموا حقيقة هذه المقالات ومآلاتها ولو علموا مخالفة هذه المقالات للسنة لرجعوا عنها ولم يقولوا بها .

— (إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعا ، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها

شيوخهم ، عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ماظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا نجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا مافي القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك ، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها.. وهم لو تصوروا هذه (المقالة) لم يقولوا هذا .

والمقصود أن كثيرا من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول ، بخلاف السلف ، فلهذا كان السلف أكمل علما وإيمانا ، وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه ..

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعا لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ماقال ، فيكون قوله تبعا لقوله وعلمه تبعا لأمره ، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ، ولا يؤسس دينا غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء في الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل . فهذا أصل أهل السنة . وأهل البدع لايجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ماتلقوه عن الرسول ، بل على مارأوه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضا أو حرفوها تأويلا .

فهذا هو الفرقان بين أهل الايمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين ، بل ناقصي الإيمان مبتدعين ، وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

وكل من خالف ماجاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن .. لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك . ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهرا بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول ، وهم معتصمون بحبل الله يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لايتقدمون بين يدي الله ورسوله ، فضلا عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

* فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ماكان ظاهرا لهم ، ودق على كثير من الناس ، ماكان جليا لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة مالم يكن مثل هذا في السلف وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ، ويثيبهم على اجتهادهم . وقد يكون لهم من الحسنات مايكون للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملها في ذلك الزمان ، لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك) ج ١٣ ص ٥٨-٦٥ .

* — (ولاريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة وإن كان ذلك في المسائل العلمية ، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة . وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل ، مع كونه لم يطلب العلم ، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ماأدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته ، ويثيبه على اجتهاداته ، ولايؤاخذه بما أخطأ ، تحقيقا لقوله : ﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾. وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى ، كما نطق به القرآن ، وإنما توقفوا في شخص معين لعدم العلم بدخوله في المتقين) ج ٢٠ ص ١٦٦ .

*** ب — ومنهم من خالف السنة لاجتهاد خاطيء أو تأويل بعيد :**

والمخالفون للسنة منهم من يذب عن السنة ويدافع عنها أمام أعدائها ولكنه أثناء ذلك قد يخالف السنة لاجتهاد خاطيء أو تأويل بعيد فيجتمع فيه الأمران السنة والبدعة ، النور والظلمة ، فهذا معذور خاصة إذا غابت راية السنة الواضحة الجلية .

* — (ومما ينبغي أيضا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام : على درجات ، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة . ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ، فيكون محمودا فيما رده من الباطل وما قاله من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد بالباطل باطلا بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك) ج ٣ ص ٣٤٨ .

* — (قد يقترن بالحسنات سيئات إما مغفورة أو غير مغفورة ، وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة ، إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق علما وعملا . فإذا لم يحصل النور الصافي بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف ، وإلا بقي الانسان في الظلمة ، فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة ، إلا إذا حصل نور لاظلمة فيه ، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية ، إذا خرج غيره عن ذلك ، لما رآه في طرق الناس من الظلمة . وإنما قررت هذه (القاعدة) ليحمل ذم السلف والعلماء للشيء على موضعه ، ويعرف أن العدول عن كمال خلافة النبوة المأمور به شرعا ، تارة يكون لتقصير بترك الحسنات علما وعملا ، وتارة بعدوان بفعل السيئات علما وعملا ، وكل من الأمرين قد يكون عن غلبة . وقد يكون مع القدرة ، (فالأول) قد يكون لعجز

وقصور وقد يكون مع قدرة وإمكان ، (والثاني) قد يكون مع حاجة وضرورة وقد يكون مع غنى وسعة . وكل واحد من العاجز عن كمال الحسنات والمضطر إلى بعض السيئات معذور . وهذا (أصل عظيم) : وهو أن تعرف الحسنة في نفسها علما وعملا ، سواء كانت واجبة أو مستحبة ، وتعرف السيئة في نفسها علما وعملا وقولا ، محظورة كانت أو غير محظورة — إن سميت غير المحظورة سيئة — وأن الدين تحصيل الحسنات والمصالح ، وتعطيل السيئات والمفاسد . وأنه كثيرا مايجتمع في الفعل الواحد ، أو في الشخص الواحد الأمران ، فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه إلى ماتضمنه أحدهما ، فلا يغفل عما فيه من النوع الآخر . كما يتوجه المدح والأمر والثواب إلى ماتضمنه أحدهما ، فلا يغفل عما فيه من النوع الآخر ، وقد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية والفجورية ، لكن قد يسلب مع ذلك ماحمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية .

فهذا طريق الموازنة والمعادلة ، ومن سلكه كان قائما بالقسط الذي أنزل الله له الكتاب والميزان) ج ١٠ ص ٣٦٤-٣٦٦ .

* — (والسلف إذا ذموا أهل الكلام وقالوا : علماء الكلام زنادقة ، ومارتدى أحد بالكلام فأفلح ، فلم يريدوا به مطلق الكلام ، وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين) ج ١٢ ص ٤٦٠-٤٦١ .

(٣) المتعد الظالم :

والمخالفون للسنة قد يقع منهم البغي والظلم والعدوان إما خطأ في الاجتهاد والتأويل وإما للظلم والجهل ، فهؤلاء عصاة آثمون ، وأولئك غايتهم أنهم مخطئون .

* — (وكل من كان باغيا أو ظالما أو معتديا أو مرتكبا ماهو ذنب فهو (قسمان) :
متأول ، وغير متأول ، فالمتأول المجتهد : كأهل العلم والدين الذين اجتهدوا واعتقد بعضهم حل أمور ، واعتقد الآخر تحريمها ، كما استحل بعضهم بعض أنواع الأشربة ، وبعضهم بعض المعاملات الربوية ، وبعضهم بعض عقود التحليل والمتعة ، وأمثال ذلك ، فقد جرى ذلك وأمثاله من خيار

السلف . فهؤلاء المجتهدون غايتهم أنهم مخطئون ، قد قال تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء) ج ٣٥ ص ٧٥ .

* — (وقد أخبر سبحانه عن داود وسليمان عليهما السلام أنهما حكما في الحرث ، خص أحدهما بالعلم والحكم ، مع ثنائه على كل منهما بالعلم والحكم . والعلماء ورثة الأنبياء ، فإذا فهم أحدهم من المسئلة مالم يفهمه الآخر لم يكن بذلك ملوما ولامانعا لما عرف من علمه ودينه ، وإن كان ذلك مع العلم بالحكم يكون إثما وظلما ، والإصرار عليه فسقا ، بل متى علم تحريمه ضرورة كان تحليله كفرا . فالبغي هو من هذا الباب) ج ٣٥ ص ٧٥ .

* — (أما إذا كان الباغي مجتهدا متأولا ، ولم يتبين له أنه باغ ، بل اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئا في اعتقاده : لم تكن تسميته (باغيا) موجبة لإثمه ، فضلا عن أن توجب فسقه . والذين يقولون بقتال البغاة المتأولين ، يقولون مع الأمر بقتالهم : قتالنا لهم لدفع ضرر بغيهم ، لا عقوبة لهم ، بل للمنع من العدوان ، ويقولون : إنهم باقون على العدالة لا يفسقون . ويقولون : هم كغير المكلف ، كما يمنع الصبي والمجنون والناسي والمغمى عليه والنائم من العدوان أن لا يصدر منهم ، بل تمنع البهائم من العدوان . ويجب على من قتل مؤمنا خطأ الدية بنص القرآن مع أنه لا إثم عليه في ذلك . وهكذا من رفع إلى الإمام من أهل الحدود وتاب بعد القدرة عليه فأقام عليه الحد ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له ، والباغي المتأول يجلد عند مالك والشافعي وأحمد ونظائره متعددة ، ثم بتقدير أن يكون (البغي) بغير تأويل : يكون ذنبا والذنوب تزول عقوبتها بأسباب متعددة : بالحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة ، وغير ذلك) ج ٣٥ ص ٧٦ .

* — (وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لايفسق أحد منهم فضلا عن أن يكفر ، حتى عدى ذلك من عداه من الفقهاء إلى سائر أهل البغي ، فإنهم مع إيجابهم لقتالهم ، منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل ، كما يقول

والإمارة ، قد دخل في كثير من كفرهم ، وعظمهم ، ويرى تحكيم ما قرروه من القواعد ونحو ذلك . وهؤلاء كثروا في المستأخرين ، ولبسوا الحق الذي جاءت به الرسل ، بالباطل الذي كان عليه أعداؤهم .

والله تعالى يحب تمييز الخبيث من الطيب ، والحق من الباطل . فيعرف أن هؤلاء الأصناف : منافقون ، أو فيهم نفاق ، وإن كانوا مع المسلمين ، فإن كون الرجل مسلما في الظاهر لايمنع أن يكون منافقا في الباطن ، فإن المنافقين كلهم مسلمون في الظاهر ، والقرآن قد بين صفاتهم وأحكامهم ، وإذا كانوا موجودين على عهد رسول الله ﷺ ، وفي عزة الإسلام ، مع ظهور أعلام النبوة ونور الرسالة ،فهم مع بعدهم عنهما أشد وجودا ، لاسيما وسبب النفاق هو سبب الكفر ، وهو المعارض لما جاءت به الرسل) ج ٢٨ ص ٢٠١–٢٠٢ .

— (هذا مع العلم بأن كثيرا من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر ، وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار . فما أكثر مايوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون ، بل أصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ، ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، فهؤلاء كفار في الباطن ، ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضا) ج ١٢ ص ٤٩٧ .

* (٥) **المشرك الضال :**

والمخالفون للسنة منهم مشركون ضالون يجب أن يستتابوا عن شركهم إذا أظهروه وإلا ضربت أعناقهم وقتلوا كفارا مرتدين .

* — (هؤلاء الدرزية والنصيرية كفار باتفاق المسلمين لايحل أكل ذبائحهم ولانكاح نسائهم بل ولايقرون بالجزية فانهم مرتدون عن دين الإسلام ليسوا مسلمين ولايهود ولانصارى ، لايقرون بوجوب الصلوات الخمس ولاوجوب صوم رمضان ولاوجوب الحج ولاتحريم ماحرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما وإن اظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين .

فأما النصيرية فهم اتباع أبي شعيب محمد بن نصير وكان من الغلاة الذين يقولون إن عليا إله ....

وأما الدرزية فاتباع هشتكين الدرزي وكان من موالي الحاكم أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة فدعاهم إلى إلاهية الحاكم ويسمونه الباري ، العلام ، ويحلفون به وهم من الإسماعليه القائلين بأن محمداً بن اسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله وهم أعظم كفرا من الغاليه يقولون بقدم العالم وانكار المعاد وانكار واجبات الإسلام ومحرماته) ج ٣٥ ص ١٦١–١٦٢ .

* — (كفر هؤلاء — أي الدّروز — مما لايختلف فيه المسلمون بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم لاهم بمنزلة أهل الكتاب ولاالمشركين بل هم الكفره الضالون فلا يباح أكل طعامهم وتسبى نساؤهم وتؤخذ أموالهم فإنهم زنادقة مرتدون لاتقبل توبتهم بل يقتلون اينما ثقفوا ويلعنون كما وصفوا ولايجوز استخدامهم للحراسه والبوابه والحفاظ ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم ويحرم النوم معهم في بيوتهم ورفقتهم والمشي معهم وتشييع جنائزهم اذا علم موتها) ج ٣٥ ص ١٦٢

* — (فمن اعتقد في بشر أنه إله ، أو دعا ميتا ، أو طلب منه الرزق والنصر والهداية ، وتوكل عليه أو سجد له ، فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . ومن فضل أحدا من (المشائخ) على النبي ﷺ أو أعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ : استتيب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .
وكذلك من اعتقد أن أحدا من (أولياء الله) يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر مع موسى عليه السلام ، فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ... ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم ، فمن أعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله) ج ٣ ص ٤٢٢ .

* — (وكذلك الغلو في بعض المشائخ : إما في الشيخ (عدي) و (يونس القتي) أو (الحلاج) وغيرهم بل الغلو في (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه ونحوه ، بل الغلو في المسيح عليه السلام ونحوه فكل من غلا في حي ، أو في رجل صالح كمثل علي — رضي الله عنه — أو (عدي) أو نحوه ، أو فيمن يعتقد فيه الصلاح ، كالحلاج أو الحاكم الذي كان بمصر ، أو يونس القتي ونحوهم ، وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يقول : كل

رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ماأريده أو يقول إذا ذبح شاة : باسم سيدي ، أو يعبده بالسجود له أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى ، مثل أن يقول : ياسيدي فلان اغفر لي أو ارحمني أو انصرني أو ارزقني ، أو أغثني أو أجرني ، أو توكلت عليك ، أو أنت حسبي ، أو أنا في حسبك ، أو نحو هذه الأقوال والأفعال ، التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل) ج ٣ ص ٣٩٥ .

— (وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه — أي الله سبحانه وتعالى — بعيني رأسه في الدنيا هم ضلال كما تقدم ، فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص : إما الصالحين ، أو بعض المردان ، أو بعض الملوك وغيرهم ، عظم ضلالهم وكفرهم ، وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى ابن مريم . بل هم أضل من اتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان . ويقول للناس أنا ربكم ! ...
وهؤلاء قد يسمون (الحلولية) و (الاتحادية) وهم صنفان :

— (قوم) يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء ، كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام ، والغالية في علي رضي الله عنه ونحوه ، وقوم في أنواع من المشائخ ، وقوم في بعض الملوك ، وقوم في بعض الصور الجميلة ، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي شر من مقالة النصارى .

— و (صنف) يعمون فيقولون بحلوله واتحاده في جميع الموجودات — حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها — كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية : كأصحاب ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، والتلمساني ، والبلياني ، وغيرهم .... **فهؤلاء** (الضلال الكفار) الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينيه ، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه ! وربما يعين أحدهم آدميا إما شخصا أو صبيا أو غير ذلك ويزعم أنه كلمهم ، يستتابون فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفارا ، إذ هم اكفر من اليهود والنصارى

... هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن عليا رضي الله عنه ، أو غيره من أهل البيت هو الله ، وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم علي رضي الله عنه بالنار) ج ٣ ص ٣٩١-٣٩٤ .

الفصل الثامن

رؤوس الفرق المخالفة للسنة والجماعة

أهل السنة والجماعة لا يحكمون على غيرهم من الفرق إلا بالعلم والعدل بعكس أهل التفرق والاختلاف الذين يبدعون مخالفيهم بالظن والهوى .

— (وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات ، وذكروهم في كتب المقالات ، لكن الجزم بأن هذه الفرق الموصوفة هي إحدى الأثنتين والسبعين لابد له من دليل ، فإن الله حرم القول بلا علم عموما ، وحرم القول عليه بلا علم خصوصا ... وأيضا فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى ، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه المواليه له هم أهل السنة والجماعة ، ويجعل من خالفها أهل البدع ، وهذا ضلال مبين) ج ٣ ص ٣٤٦ .

رؤوس الفرق المخالفه خمسة: الخوارج والرافضة والمرجئة والقدرية والجهمية:

وأهل السنة والجماعة تكلموا في تعيين الفرق المخالفة حيث صنفوا رؤوس هذه الفرق إلى أربع أو خمس مجموعات : الخوارج ، والرافضة ، والقدرية ، والمرجئة ، ثم الجهمية .

— (و (البدعة) التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة ، كبدعة : الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة .... وقد قال عبد الرحمن بن مهدي : هما صنفان فاحذرهما : الجهمية والرافضة ، فهذان الصنفان شرار أهل البدع) ج ٣٥ ص ٤١٤ .

* — (وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف ابن أسباط، ثم عبدالله بن المبارك، وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين ، قالا : أصول البدع أربعة : الروافض ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة . فقيل لابن المبارك : والجهمية ؟ فأجاب بأن اولئك ليسوا من أمة محمد . وكان يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولانستطيع أن نحكي كلام الجهمية . وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم ، قالوا : إن الجهمية كفار فلا يدخلوا في الاثنتين والسبعين فرقة ، كما لايدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ، وهم الزنادقة . وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم : بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة ، وجعلوا أصول البدع خمسة) ج ٣ ص ٣٥٠ .

* — (وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على (أقسام) :
منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج . ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية : كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه : كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالخلال ، وأبي عبد الله بن بطة ، وأمثالهما : وكأبي الفرج المقدسي ، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية : لأنهم أغلظ البدع : وكالبخاري في صحيحة فإنه بدأ (بكتاب الإيمان والرد على المرجئة) وختمه (بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية) ج ١٣ ص ٤٩ .

أولاً : الخوارج :

فالخوارج هم أول الفرق خروجا عن السنة والجماعة .

* — (وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وصدرا من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لاتنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب وفارقوه ، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين ، وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد .. إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن خباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ، فعلم (علي) أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله ﷺ حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » وفي رواية « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لايوجد ، فسجد لله شكرا) ج ١٣ ص ٣٢ .

* — (وكانت البدع الأولى مثل (بدعة الخوارج) إنما هي من سوء فهمهم للقرآن ، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب : إذ كان المؤمن هو البر التقي . قالوا : فمن لم يكن برا تقيا فهو كافر وهو مخلد في النار . ثم قالوا : وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله ، فكانت بدعتهم لها مقدمتان . (الواحدة) أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر . (والثانية) أن عثمان وعليا ومن والاهما كانوا كذلك .

ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام فكفّر أهلها المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم . قال الإمام أحمد بن جنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ، ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ،

فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن والإعراض عنه) ج ١٣ ص ٢٠ .

* — (و(الخوارج) لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ماخالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ، ولا يرون للسرقة نصابا ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين ، و (أقوال الخوارج) إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف) ج ١٣ ص ٤٨ .

* — (وإذا عرف أصل البدع فأصل قول الخوارج : أنهم يكفرون بالذنب ويعتقدون ذنبا ماليس بذنب ، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب — وإن كانت متواترة — ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لايستحلونه من الكافر الأصلي ، كما قال النبي ﷺ فيهم : « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ولهذا كفروا عثمان وعليا وشيعتهما ، وكفروا أهل صفين — الطائفتين — ونحو ذلك من المقالات الخبيثة) ج ٣ ص ٣٥٥ .

* — (أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل (عثمان) وافتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا : لا حكم إلا الله ، وفارقوا جماعة المسلمين فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم ، فقتلوا ابن خباب وقالوا كلنا قتله ، فقاتلهم علي . وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه ، لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا ، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالما ، فلم ينقادوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده بل قالوا : إن عثمان وعليا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فكفّروا المسلمين

بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين . (إحداهما) أن هذا يخالف القرآن ، (والثانية) أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئا أو مذنبا معتقدا للوجوب والتحريم) ج ١٣ ص ٢٠٨ .

ثانياً : الشيعة والرافضة :

والشيعة أو الرافضة حدثوا أيضا بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وإن كانوا مختفين بقولهم حيث لم يكن لهم جماعة ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ولكنهم لا يقلون خطرا عن الخوارج إن لم يكونوا أخطر الفرق بإطلاق على السنة والجماعة .

— (وحدث في أيام (علي) الشيعة ، لكن كانوا مختفين بقولهم ، لا يظهرونه لعلي وشيعته ، بل كانوا ثلاث طوائف :

(طائفة) تقول : إنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار ، وخد لهم أخاديد عند باب مسجد بني كندة .. وقد روى أنه أجلهم ثلاثا .

(والثانية السابة) وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه ، قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه .

(والثالثة المفضلة) الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : مَنْ خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر ، قال : ثم من ؟ قال : عمر . وكانت الشيعة الأولى لايتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان النزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك ابن عبد الله : إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة ؟ فقال : كل الشيعة كانوا على هذا ، وهو الذي قال هذا على أعواد منبره أفنكذبه فيما قال ؟ ولهذا قال سفيان الثوري : من فضل عليا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل وهو كذلك . رواه أبو

داود في سننه ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة ولا إمام ، ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفّر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلي ومن والاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن والاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج . من سفك الدماء . وأخذ الأموال ، والخروج بالسيف ، ولهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم .. وأما لفظ (الرافضة) فهذا اللفظ أول ماظهر في الإسلام ، لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك ، واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما ، فرفضه قومه ، قال : رفضتموني ، رفضتموني ، فسموا الرافضة فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي ، والزيدية يتولون زيدا وينسبون إليه ، ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى زيدية ، ورافضة إمامية) ج ١٣ ص ٣٣-٣٦ .

— (وبازائهم (الشيعة) غلوا في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع إليهم في جميع ماجاءت به الرسل ، فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوما ، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له ، فكانوا أضل من الخوارج ، فإن اولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث .

ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم .

والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا أوصت الملاحدة — مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق ، ومثل قرامطة المغرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع — أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع ، فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي ﷺ قال : « إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله » فحض على كتاب الله ، ثم قال : « وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثا » فوصى المسلمين بهم ، لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون إليهم .

فانتحلت الخوارج كتاب الله ، وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها ، وكفّروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غير تأويله ، من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ في العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن . وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جدا قد بسطت في مواضع) ج ١٣ ص ٢٠٩ .

— (وهؤلاء الرافضة إن لم يكونوا شرا من الخوارج المنصوصين فليسوا دونهم .. والرافضة كفّرت أبا بكر وعمر وعثمان وعامة المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكفّروا جماهير أمة محمد ﷺ من المتقدمين والمتأخرين .. ويكفّرون

أعلام الملة .. ويستحلون دماء من خرج عنهم ، ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور .. ويرون أن كفرهم أغلظ من كفر اليهود والنصارى ، لأن أولئك عندهم كفار أصليون ، وهؤلاء مرتدون ، وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي . ولهذا السبب يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين .. فهم أشد ضررا على الدين وأهله ، وأبعد عن شرائع الإسلام من الخوارج الحرورية ، ولهذا كانوا أكذب فرق الأمة .. وقد أشبهوا اليهود في أمور كثيرة لاسيما السامرة من اليهود .. ويشبهون النصارى في الغلو في البشر والعبادات المبتدعة وفي الشرك وغير ذلك . وهم يوالون اليهود والنصارى والمشركين على المسلمين ، وهذه شيم المنافقين .. وهم مع هذا يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يقيمون فيها جمعة ولا جماعة .. فبهذا يتبين أنهم شر من عامة أهل الأهواء ، وأحق بالقتال من الخوارج . وهذا هو السبب فيما شاع في العرف العام : أن أهل البدع هم الرافضة : فالعامة شاع عندها أن ضد السني هو الرافضي فقط ، لأنهم أظهر معاندة لسنة رسول الله ﷺ وشرائع دينه من سائر أهل الأهواء .. وهؤلاء فيهم من الزنادقة والغالية من لايحصيه إلا الله .. وأيضا فغالب أئمتهم زنادقة ، إنما يظهرون الرفض لأنه طريق إلى هدم الإسلام) ج ٢٨ ص ٤٧٧-٤٨٣ .

— (وأصل قول الرافضة : إن النبي ﷺ نص على (عليّ) نصا قاطعا للعذر ، وإنه إمام معصوم ومن خالفه كفر ، وإن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام المعصوم ، واتبعوا أهواءهم وبدلوا الدين وغيروا الشريعة وظلموا واعتدوا ، بل كفروا إلا نفرا قليلا : إما بضعة عشر أو أكثر ، ثم يقولون : إن أبا بكر وعمر ونحوهما مازالا منافقين . وقد يقولون : بل آمنوا ثم كفروا . وأكثرهم يكفّر من خالف قولهم ويسمون أنفسهم المؤمنين ومن خالفهم كفارا ، ويجعلون مدائن الإسلام التي لاتظهر فيها أقوالهم دار ردة أسوأ حالا من مدائن المشركين والنصارى ، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين ، ومعاداتهم ومحاربتهم : كما عرف من موالاتهم الكفار

المشركين على جمهور المسلمين ، ومن موالاتهم الافرنج النصارى على جمهور المسلمين ، ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين . ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق ، كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم ، ولاريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة ، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة ، فجمهور العامة لاتعرف ضد السني إلا الرافضي ، فإذا قال أحدهم : أنا سني فإنما معناه لست رافضيا . ولاريب أنهم شر من الخوارج : لكن الخوارج كان لهم في مبدىء الإسلام سيف على أهل الجماعة ، وموالاتهم الكفار أعظم من سيوف الخوارج ، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة ، وهم منتسبون إليهم ، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق ، والروافض معروفون بالكذب والخوارج مرقوا من الإسلام ، وهؤلاء نابذوا الإسلام) ج ٣ ص ٣٥٦ .

ثالثاً : المرجئة :

والمرجئة حدثت كرد فعل لآراء الخوارج في الإيمان والكفر . وإن كانت هذه البدعة قد بدأت كنزاع على الأسماء معظمه لفظي إلا إنها تطورت وتغلغلت فيما بعد .

— (وحدثت (المرجئة) وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا ابراهيم النخعي وأمثاله ، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان . وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع في الإسم واللفظ دون الحكم ، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول ، مثل حماد بن أبي سليمان ، وأبي حنيفة ، وغيرهما ، هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم بالشفاعة ، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لابد في الإيمان أن يتكلم بلسانه ، وعلى أن الاعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب فكان في الأعمال هل هي من الإيمان ، وفي الإستثناء ، ونحو ذلك ، عامته نزاع لفظي .. وفي الجملة

الذين رموا بالإرجاء من الأكابر ، مثل طلق بن حبيب ، وابراهيم التيمي ، ونحوهما : كان ارجاؤهم من هذا النوع ، وكانوا أيضا لا يستثنون في الإيمان .. وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الإستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحارم ، بل يكتفون بالإيمان .. فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظيا) ج ١٣ ص ٣٨-٤٣ .

— (وأما المرجئة فليسوا من هذه البدع المغلظة ، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة ، وما كانوا يعدون إلا من أهل السنة ، حتى تغلظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة . ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون : تكلم أئمة السنة المشاهير في ذم المرجئة المفضلة تنفيرا عن مقالتهم ، كقول سفيان الثوري : من قدم عليا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك . أو نحو هذا القول ، قاله لما نسب إلى تقديم علي بعض أئمة الكوفيين . وكذلك قول أيوب السختياني : من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين . وقد روى أنه رجع عن ذلك وكذلك قول الثوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين) ج ٣ ص ٣٥٧ .

— (والمرجئة الذين قالوا : الإيمان تصديق القلب ، وقول اللسان . والأعمال ليست منه ، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها . ولم يكن قولهم مثل قول جهم ، فعرفوا أن الإنسان لايكون مؤمنا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه ، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهم كفار مع تصديق قلوبهم .. والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون : إن الأعمال قد تسمى إيمانا مجازا ، لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه ، ولأنها دليل عليه ..

والمرجئة ثلاثة أصناف :

١ — الذين يقولون الإيمان مجرد مافي القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب ، وهم أكثر فرق المرجئة ... ومنهم من لايدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه ..

٢ — والقول الثاني من يقول : هو مجرد قول اللسان ، وهذا لايعرف لأحد قبل الكرامية .

٣ — والثالث : تصديق القلب وقول اللسان . وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم

وهؤلاء غلطوا من وجوه :

(أحدها) : ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد ، وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص ، وليس الأمر كذلك ..

(والوجه الثاني) : من غلط المرجئة : ظنهم أن مافي القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط ، دون أعمال القلوب ، كما تقدم عن جهمية المرجئة .

(الثالث) : ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال ، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه ، بمنزلة السبب مع المسبب ، ولايجعلونها لازمة له . والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر) ج ٧ ص ١٩٤-٢٠٤ .

رابعاً وخامساً : القدرية والجهمية :

والقدرية حدثت في آخر عصر الصحابة حيث بدأ الخوض في القدر إلى أن تبلور إلى تيارين أساسيين : (القدرية النفاة) المنكرون للقَدر والذين اشتهروا بعد ذلك باسم (القدرية) أو المعتزلة . و(القدرية المجبرة) المنكرون للقُدرة البشرية والذين اشتهروا بعد ذلك باسم (الجهمية) . ثم أضافت كل فرقة منهما إلى مقالها في القدر مقالات أخرى مبتدعة وإن اتفقت الفرقتان على مبدأ نفي الصفات عن الله عز وجل بعضها أو كلها .

— (ثم في آخر عصر الصحابة حدثت (القدرية) ، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ماسيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصية ولايطيعه ، وظنوا أيضا أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد . فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابة أنكروا إنكارا عظيما وتبرءوا منهم ، حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أني بريء منهم وأنهم مني برآء والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ماقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث في صحيح مسلم ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة أيضا مختصرا .

ثم كثر الخوض في (القدر) وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة ، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في (الإرادة) و (خلق أفعال العباد) فصاروا في ذلك حزبين :

— (النفاة) يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئا من أفعال العباد .

— وقابلهم الخائضون في القدر من (المجبرة) مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولاقدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط . وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه قال : لايسمي الله شيئا ، ولاغير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر .

وكانت الخوارج قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة ، وقالوا : إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاض الناس في ذلك ، وخاض

في ذلك (القدرية) بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ولكن لم يسموهم كفارا ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري ، مثل قتادة وأيوب السختياني ، وأمثالهما فسموا (معتزلة) من ذلك الوقت بعد موت الحسن . وقيل إن قتادة كان يقول : أولئك (المعتزلة) . وتنازع الناس في الأسماء والأحكام أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ومؤمن ، وكافر وفاسق وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة . فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم مااستحلته الخوارج ، وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها ، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم) ج ١٣ ص ٣٦-٣٨ .

— (ثم حدث في آخر عصر الصحابة (القدرية) فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي : أمره ونهيه ، وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمنا وكافرا ، وهي (مسائل الأسماء والأحكام) وسموا محكمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال : لاحكم إلا لله ، قالوا : هو محكم ، أي خائض في حكم الله ، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل ، وأما (القدرية) فخاضوا في قدره بالباطل .

وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين : حزبا يعظمون الشرع والأمر والنهي والوعد والوعيد وإتباع ما يحبه الله ويرضاه وهجر مايبغضه ومايسخطه ، وظنوا أن هذا لايمكن أن يجمع بينه وبين القدر .. حزبا يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه ، أو ينفي بعضه . وحزبا يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول : لافرق بين ماأمر الله به ومانهى عنه في نفس الأمر ، الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه وكذلك ماذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه لكنه فرّق بين المتماثلين بمحض المشيئة ، يأمر بهذا وينهى عن

مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ... فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقا ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لايفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ويقولون : (لو شاء الله ما أشركنا) الآية ، وهؤلاء منتهى توحيدهم توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فأما توحيد الألوهية المتضمن للأمر والنهي ولكون الله يحب ماأمر به ويبغض مانهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعا لأهوائهم وأكثر شركا وتجويزا من (المعتزلة) ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ...
فـ (القدرية) أصلهم أنه لايمكن إثبات قدرته وحكمته ، إذ لو كان قادرا لفعل غير مافعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر ، وقالوا : تثبت حكمته كما يثبت حكمه ...

وقالت (المجبرة) : بل قدرته ثابته بلا حكمة ، ولايجوز أن يفعل لحكمه ... ثم من حقق منهم : أنكر الشرع بالكلية وأنكر النبوات .. وأما من كان منهم مقرا بالنبوة فأنكر الشرع في الباطن وقال العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة صار منافقا يظهر خلاف ما يبطن ويقول : الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون (باطنية) كما سموا الملاحدة (باطنية) فإن كلاهما يبطن خلاف مايظهر ، يبطنون تعطيل ماجاء به الرسول من الأمر والنهي . فمنتهى الجهمية المجبرة : إما مشركون ظاهرا وباطنا ، وإما منافقون يبطنون الشرك)
ج ١٣ ص ٢١١-٢١٤ .

— (قد ذكرت في غير موضع أن القدرية (ثلاثة أصناف) :
(قدرية مشركية) ، و (قدرية مجوسية) ، و (قدرية ابليسية) .
فأما الأولون : فهم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر وزعموا أن ذاك يوافق الأمر والنهي وقالوا : (لو شاء الله ، ما أشركنا ولا آباؤنا ولا

حرمنا من دونه من شيء) .. فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع والأمر والنهي مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق . وأنه مامن دابة إلا ربي آخذ بناصيتها وهو الذي يبتلي به كثيرا — إما اعتقادا وإما حالا — طوائف من الصوفية والفقراء ، حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات ، وإسقاط الواجبات ورفع العقوبات ... وقد يغلو أصحاب هذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله .. ويتمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم ومن غيرهم ... ولما كان في هؤلاء شوب من النصارى ، والنصارى فيهم شوب من الشرك تابعوا المشركين في ما كانوا عليه من التمسك بالقدر المخالف للشرع ..

(والقدرية الثانية) المجوسية : الذين يجعلون لله شركاء في خلقه كما جعل الأولون لله شركاء في عبادته فيقولون خالق الخير غير خالق الشر . ويقول من كان منهم في ملتنا : إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى ، وربما قالوا : ولايعلمها أيضا .. ويزعمون أن هذا هو العدل ، ويضمون إلى ذلك سلب الصفات ويسمونه التوحيد ... وهذا يقع كثيرا — إما اعتقادا وإما حالا — في كثير من المتفقهة والمتكلمة ، كما وقع اعتقاد ذلك في المعتزلة والشيعة المتأخرين .. ولما بين الطائفتين من التنافي تجد المعتزلة أبعد الناس عن الصوفية ، ويميلون إلى اليهود ، وينفرون عن النصارى ، ويجعلون إثبات الصفات هو قول النصارى بالأقانيم ...

(القسم الثالث) القدرية الإبليسية الذين صدقوا بأن الله صدر عنه الأمران ، لكن عندهم هذا تناقض ، وهم خصماء الله كما جاء في الحديث ، وهؤلاء كثير في أهل الأقوال والأفعال من سفهاء الشعراء ونحوهم من الزنادقة ، كقول أبي العلاء المعري : أنهيت عن قتل النفوس تعمدا وزعمت أن لها معادا آتيا . ماكان أغناها عن الحالين . وقول بعض السفهاء الزنادقة : يخلق نجوما وبينها أقمار . يقول ياقوم غضوا عنهم الأبصار . ترمي النسوان ، وتزعق معشر الحضار اطفوا الحريق .

وبيدك قد رميت النار . ونحو ذلك مما يوجب كفر صاحبه وقتله) ج ٨ ص ٢٢٦-٢٦٠ .

— (وأما المعتزلة فهم ينفون الصفات ، ويقاربون قول جهم ، لكنهم ينفون القدر ، فهم وإن عظموا الأمر والنهي ، والوعد والوعيد : وغلوا فيه ، فهم يكذبون بالقدر ، ففيهم نوع من الشرك من هذا الباب ، والإقرار بالأمر والنهي والوعد والوعيد مع إنكار القدر خير من الإقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد .. فهؤلاء المتصوفون ، الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي : شر من القدرية المعتزلة ونحوهم : أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين) ج ٣ ص ١٠٣-١٠٤ .

— (هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة ، فإنهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم : الحشو ، كما تسميهم الرافضة : الجمهور . وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم : وهم غير الأعيان المتميزين ، يقول : هذا من حشو الناس كما يقال : هذا من جمهورهم ، وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد ، وقال : كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشويا ، فالمعتزلة سموا الجماعة حشوا ، كما تسميهم الرافضة الجمهور) ج ٣٠ ص ١٨٥ .

— (وأما القدرية المحضة فهم خير من هؤلاء بكثير — يقصد الرافضة — وأقرب إلى الكتاب والسنة لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضا ، وقد يكفّرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين ، فيقربون من أولئك — يقصد الخوارج) ج ٣ ص ٣٥٧ .

— (ثم أصل هذه المقالة — مقالة التعطيل للصفات — إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين . وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام — أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة ، وأن استوى بمعنى استولى ونحو ذلك — هو الجعد ابن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها ، فنسبت مقالة الجهمية إليه . وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان

وأخذها ابان عن طالوت ابن اخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم : اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ) ج ٥ ص ٢٠ .

— (وأما جهم فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول) ج ١٣ ص ٤٧ .

— (وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى ... وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن صفوان وقتله بخراسان سلمة بن أحوز ، وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى (مقالة الجهمية) وهي نفي صفات الله تعالى ، فإنهم يقولون : إن الله لايُرى في الآخرة ، ولا يكلم عباده ، وإنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك (المعتزلة) أصحاب عمرو بن عبيد ، وضموا إليها بدعا أخرى في القدر وغيره) ج ١٢ ص ٥٠٢-٥٠٣ .

— (وأصولهم خمسة — أي المعتزلة — يسمونها : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لكن معنى (التوحيد) عندهم يتضمن نفي الصفات ...

ومعنى (العدل) عندهم يتضمن التكذيب بالقدر ، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب ...

وأما (المنزلة بين المنزلتين) فهي عندهم أن الفاسق لايسمى مؤمنا بوجه من الوجوه ، كما لايسمى كافرا فنزّلوه منزلة بين منزلتين .

و (إنفاذ الوعيد) عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا بغير ذلك ، كما تقوله الخوارج .

و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف) ج ١٣ ص ٣٨٦ .

— (ولم يكن الناس إذ ذاك أحدثوا شيئا في نفي الصفات ، إلى أن ظهر (الجعد بن درهم) وهو أولهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري ... ثم ظهر جهم من ناحية المشرق من ترمذ وفيها ظهر رأي جهم .. وإنما اشتهرت مقالتهم من حين محنة الإمام أحمد وغيره من علماء السنة ، فإنهم في إمارة المأمون قووا وكثروا ... وكان ابن أبي دؤاد قد جمع له نفاة الصفات من جميع الطوائف .

وعلماء السنة كابن المبارك وأحمد واسحق والبخاري يسمون هؤلاء جميعهم جهمية .

وصار كثير من المتأخرين من أصحاب أحمد وغيرهم يظنون أن خصومه كانوا هم المعتزلة ، وليس كذلك بل المعتزلة نوع منهم .

والمقصود هنا : أن جهما اشتهر عنه بدعتان :

(إحداهما) نفي الصفات .

و(الثانية) الغلو في القدر ، والإرجاء . فجعل الإيمان مجرد معرفة القلب . وجعل العباد لافعل لهم ولاقدرة .

وهذان مما غلت المعتزلة في خلافه فيهما .. وجهم لايثبت شيئا من الصفات : لا الإرادة ولاغيرها .. وشاع هذا القول في كثير من الصوفية ، فوافقوا جهما في مسائل الأفعال والقدر . وخالفوه في الصفات) ج ٨ ص ٢٢٨-٢٣٠ .

الفصل التاسع

نظرة أهل السنة والجماعة إلى البدع المخالفة للسنة وإلى أهلها

أهل السنة والجماعة يرون أن البدع المخالفة للسنة قد تكون في أمور دقيقة وقد تكون في أصول عظيمة ، ولذلك فأصحاب البدع متفاوتون قربا وبعدا عن السنة فبعضهم خلافه يعود النزاع فيه في الألفاظ والأسماء وبعضهم يكون نزاعه على المعاني وحقائق الأشياء ، ومن هنا انقسمت هذه البدع — من وجهة نظر أهل السنة طبعا — إلى :

١ — بدع لا خلاف على عدم تكفير أصحابها ، مثل (المرجئة) و (الشيعة) المفضلة .

٢ — وبدع هناك خلاف على تكفير أو عدم تكفير أصحابها ، مثل (الخوارج) و (والزوافض) .

٣ — وبدع لا خلاف على تكفير أصحابها بإطلاق ، مثل (الجهمية المحضة) .

— (إن الطوائف المنتسبة الى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة) ج ٣ ص ٣٤٨ .

(١) بدع لا خلاف على عدم تكفير أصحابها :

— (أما المرجئة فليسوا من هذه البدع المغلظة ، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة ، وماكانوا يعدون إلا من أهل السنة . حتى تغلظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة . ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون تكلم أئمة السنة المشاهير في ذم المرجئة المفضلة تنفيرا عن مقالتهم) ج ٣ ص ٣٥٧ .

— (أما المرجئة فلا تختلف نصوصه ـ أي الإمام أحمد بن حنبل ـ أنه لايكفرهم ، فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع ، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء ، ولهذا يسمى الكلام في مسائلهم (باب الأسماء) ، وهذا من نزاع الفقهاء ، لكن يتعلق بأصل الدين ، فكان المنازع فيه مبتدعا) ج ١٢ ص ٤٨٥ .

— (وكذلك الشيعة المفضلون لعلّي على أبي بكر ، لايختلف قوله في أنهم لا يكفرون ، فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضا ، وإن كانوا يبدعون) ج ١٢ ص ٤٨٦ .

— (أما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير (المرجئة) و (الشيعة) المفضلة ونحو ذلك ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء) ج ٣ ص ٣٥١ .

(٢) بدع هناك خلاف على تكفير أو عدم تكفير أصحابها :

— (وأما (القدرية) المقرون بالعلم ، و (الروافض) الذين ليسوا من الغالية ، و (الجهمية) و (الخوارج) فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان[1]، هذه حقيقة قوله المطلق . مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم ، والخوارج ، مع قوله : ماأعلم قوما شرا من الخوارج .. وعنه في تكفير من لايكفر روايتان ، أصحهما لا يكفر . وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لايكفر مطلقا ، وهو خطأ محض . والجهمية عند كثير من السلف : مثل عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم : ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة ، بل أصول هذه عند هؤلاء : هم الخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، والقدرية وهذا المأثور عن أحمد ، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة والحديث ، أنهم كانوا يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : إن الله لايُرى في الآخرة فهو كافر ، ونحو ذلك . ثم حكى أبو النصر السجزي عنهم في هذا قولين : (أحدهما ، إنه كفر

(١) سيأتي تحقيق قوله في الجهمية حيث كفّر بعضهم ولم يكفّر بعضهم فظن البعض ورود روايتين عنه في ذلك رغم أنه يطلق القول بكفرهم .

ينقل عن الملة . قال : وهو قول الأكثرين . والثاني أنه كفر لاينقل ، ولذلك قال الخطابي إن هذا قالوه على سبيل التغليظ وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا في تخليد المكفر من هؤلاء ، فأطلق أكثرهم عليه التخليد ، كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث ، كأبي حاتم ، وأبي زرعة ، وغيرهم وامتنع بعضهم من القول بالتخليد) ج ١٢ ص ٤٨٦-٤٨٧ .

(٣) بدع لا خلاف على تكفير أصحابها بإطلاق :

— (المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية ، وهم المعطلة لصفات الرحمن ، فإن قولهم صريح في مناقضة ماجاءت به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع ، ففيه جحود الرب ، وجحود ماأخبر به عن نفسه على لسان رسله ، ولهذا قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . وقال غير واحد من الأئمة إنهم أكفر من اليهود والنصارى ، يعنون من هذا الجهمية ، ولهذا كفّروا من يقول : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لايُرى في الآخرة ، وإن الله ليس على العرش ، وإن الله ليس له علم ، ولا قدرة ، ولا رحمة ، ولا غضب ، ونحو ذلك من صفاته) ج ١٢ ص ٤٨٦ـ٤٨٧ .

— (وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على عدم تكفير هؤلاء (المرجئة) ومن نقل عن أحمد أو غيره من الأئمة تكفيرا لهؤلاء ، أو جعل هؤلاء من أهل البدع المتنازع في تكفيرهم فقد غلط غلطا عظيما . والمحفوظ عن أحمد وأمثاله من الأئمة : إنما هو تكفير الجهمية المشبهة ، وأمثال هؤلاء) ج ٧ ص ٥٠٧ .

مذهب أهل السنة والجماعة في الحكم على شخص معين :

وأهل السنة والجماعة يفرقون بين الحكم المطلق على أصحاب البدع بالمعصية أو الفسق أو الكفر وبين الحكم على شخص معين — ممن ثبت إسلامه بيقين — صدرت عنه إحدى هذه البدع بأنه عاص أو فاسق أو كافر . فلا يحكمون عليه بذلك حتى يبين له مخالفة قوله للسنة وذلك بإقامة الحجة وإزالة الشبهة . كما يفرقون بين نصوص الوعيد المطلقة وبين استحقاق شخص بعينه لهذا الوعيد في أحكام الآخرة .

— (إني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة ، وفاسقا أخرى ، وعاصيا أخرى . وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها : وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية ... إن مانقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضا حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين . وهذه أول مسئلة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار ، وهي مسئلة (الوعيد) ، فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ الآية . وكذلك سائر ماورد : من فعل كذا فله كذا . فإن هذه مطلقة عادة . وهي بمنزلة قول من قال من السلف : من قال كذا فهو كذا . ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة . والتكفير هو من الوعيد ، فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول ﷺ ، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة . ومثل هذا لايكفر بجحد مايجحده حتى تقوم عليه الحجة . وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص ، أو سمعها ولم تثبت عنده ، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها ، وإن كان مخطئا) ج ٣ ص ٢٢٩-٢٣١ .

— (وأصل ذلك أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع يقال هي كفر قولا يطلق ، كما دل على ذلك الدلائل الشرعية ، فإن (الإيمان) من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله ، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم . ولايجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت في حقه شروط التكفير ، وتنتفي موانعه ، مثل من قال : إن الخمر أو الربا حلال ، لقرب عهده

بالإسلام ، أو لنشوئه في بادية بعيدة . أو سمع كلاما أنكره ولم يعتقد أنه من القرآن ولا أنه من أحاديث رسول الله ﷺ ، كما كان بعض السلف ينكر أشياء حتى يثبت عنده أن النبي ﷺ قالها ، وكما كان الصحابة يشكون في أشياء مثل رؤية الله وغير ذلك حتى يسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ) ج ٣٥ ص١٦٥-١٦٦

— (إن المقالة تكون كفرا : كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات المحارم ، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب وكذا لايكفر به جاحده ، كمن هو حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام ، فهذا لا يكفر بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول . ومقالات الجهمية هي من هذا النوع ، فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله . وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه :

أحدها: أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدا مشهورة وإنما يردونها بالتحريف .

الثاني : أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، وإن كان منهم من لايعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله ، فأصل الكفر الإنكار لله .

الثالث: أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها) ج ٣ ص ٣٥٤ .

— (وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة . ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ، بل لايزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة) ج ١٢ ص ٤٦٦ .

— (وسبب هذا التنازع — يعني تنازع أهل السنة في تكفير الجهمية بأعيانهم — تعارض الأدلة ، فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ، ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافرا ، فيتعارض عندهم الدليلان . وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ماأصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع . كلما

رأوهم قالوا : من قال كذا فهو كافر ، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله ، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين وأن التكفير المطلق لايستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ويبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات ، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه ... وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية ، الذين كانوا يقولون : القرآن مخلوق ، وإن الله لايُرى في الآخرة . وقد نقل عن أحمد مايدل على أنه كفّر به قوما معينين . فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر ، أو يحمل الأمر على التفصيل ، فيقال : من كفر بعينه فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه ، ومن لم يكفره بعينه ، فلانتفاء ذلك في حقه ، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم) ج ١٢ ص ٤٨٧-٤٨٩ .

— (فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين :

أحدهما أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يُرى في الآخرة ،أو أنه على العرش ، أو أن القرآن كلامه ، أو أنه كلم موسى ، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلا ، كفر ، وكذلك ماكان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث .

والاصل الثاني : أن التكفير العام — كالوعيد العام — يجب القول بإطلاقه وعمومه . وأما الحكم على المعين بأنه كافر أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه ، وانتفاء موانعه) ج ١٢ ص ٤٩٧ .

— وإذا عرف هذا[١] فتكفير (المعين) من هؤلاء الجهال[٢] وأمثالهم — بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار — لايجوز الإقدام عليه ، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية ، التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل ، وإن كانت هذه المقالة لاريب أنها كفر . وهكذا الكلام في تكفير جميع (المعينين) .

(١) أي الضوابط المذكورة في الفقرات السابقة من هذا الفصل .
(٢) يعني المخالفين للسنة .

مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ماليس في بعض ، فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة . ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة) ج ١٢ ص ٥٠٠ .

— (إن اللعنة من (باب الوعيد) فيحكم به عموما . وأما المعين فقد يرتفع عنه الوعيد لتوبة صحيحة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو غير ذلك من الأسباب التي ضررها يرفع العقوبة عن المذنب . فهذا في حق من له ذنب محقق .. ولهذا لايشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص ، ويشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص ، ولايشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم في العموم ، لأنه قد يندرج في العمومين فيستحق الثواب والعقاب) ج ٣٥ ص ٦٦-٦٨ ، ص ٢٨٢ .

مسلك أهل السنة تجاه من اجتهد أو تأول من علماء المسلمين :

وأهل السنة والجماعة إن كانو يتورعون عن المسارعة إلى تكفير أو تفسيق أعيان المبتدعة حتى تقام الحجة وتزال الشبهة فإنهم لايجوزون تكفير أو تفسيق أو حتى تأثيم علماء المسلمين لاجتهاد خاطىء أو تأويل بعيد خاصة في مسائل الظنيات المختلف عليها .

— (إن علماء المسلمين المتكلمين في الدنيا باجتهادهم لا يجوز تكفير أحدهم بمجرد خطأ أخطأه في كلامه .. فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات ، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لايجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ، ولايفسق ، بل ولا يأثم ... ومن المعلوم أن المنع من تكفير علماء المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب — يعني عصمة الأنبياء — بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية ... فكيف يكفر علماء المسلمين في مسائل الظنون ؟ أم كيف

يكفّر جمهور علماء المسلمين ، أو جمهور سلف الأئمة وأعيان العلماء بغير حجة أصلا) ج ٣٥ ص ١٠٠-١٠٤

نظرة أهل السنة إلى المبتدعة تختلف عن نظرتهم إلى من علم كفره :

وأهل السنة والجماعة يفرقون بين المبتدعة من أهل القبلة مهما كان حجم بدعتهم وبين من علم كفره بالإضطرار من دين الإسلام كالمشركين وأهل الكتاب . هذا في الحكم الظاهر على العموم ، مع علمهم أن كثيراً منهم منافقون وزنادقة في الباطن .

— (فالمخطىء في بعض هذه المسائل[1]: إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب : مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان ، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم ، مع أنها أيضا من أصول الإيمان . فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق . مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالإتفاق مع خطئه .

وإذا كان لابد من إلحاقه بأحد الصنفين : فمعلوم أن المخطئين من المؤمنين بالله ورسوله أشد شبها منه بالمشركين وأهل الكتاب : فوجب أن يلحق بهم . وعلى هذا مضى عمل الأمة قديما وحديثا في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجرى عليهم أحكام الإسلام التي تجري على غيرهم ، هذا مع العلم بأن كثيرا من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر ، وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار ..... فهؤلاء كفار في الباطن : ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضا) ج ١٢ ص ٤٩٦ .

— (كل من كان مؤمنا بما جاء به محمد ﷺ فهو خير من كل من كفر به ، وإن كان في المؤمن بذلك نوع من البدعة ، سواء كانت بدعة الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية ، أو غيرهم . فإن اليهود والنصارى كفار كفرا معلوما بالإضطرار من دين الإسلام . والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول ﷺ لا مخالف له لم يكن كافرا به ، ولو قدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذب الرسول ﷺ) ج ٣٥ ص ٢٠١ .

(١) يقصد مسائل العقائد ـ كالصفات والقدر والإيمان والوعيد وغيرها ـ مما يعد القول المخالف فيها قولاً مبتدعاً .

الفصل العاشر

معاملة أهل السنة والجماعة لأهل البدع

أولا: ميزان أهل السنة والجماعة في معاملة أهل البدع :

أهل السنة والجماعة الواجب الأول عليهم تجاه أهل البدع هو بيان حالهم وتحذير الأمة منهم وإظهار السنة وتعريف المسلمين بها ثم قمع البدع ودفع بغي وعدوان أهلها ، كل ذلك في إطار الانضباط بالعدل والاحتكام للكتاب والسنة .

— (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنه وإن تعدى حدود الله في بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية ، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله ، وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس حاكما فيما اختلفوا فيه) ج ٣ ص ٢٤٥ .

— (ما يجرح به الشاهد وغيره مما يقدح في عدالته ودينه فإنه يشهد به إذا علمه الشاهد به بالاستفاضة ـ أي ليس فقط بالسماع والمعاينة ـ ويكون ذلك قدحا شرعيا .. وما أعلم في هذا نزاعا بين الناس . فإن المسلمين كلهم يشهدون في وقتنا في مثل عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وأمثالهما من أهل العدل والدين بما لم يعلموه إلا بالاستفاضة . ويشهدون في مثل الحجاج بن يوسف والمختار بن أبي عبيد وعمرو بن عبيد وغيلان القدري وعبد الله بن سبأ الرافضي ونحوهم من الظلم والبدعة بما لايعلمونه إلا بالاستفاضة .. هذا إذا كان المقصود تفسيقه لرد شهادته وولايته ، وأما إذا كان المقصود التحذير منه واتقاء شره فيكتفى بما دون ذلك .. و (الداعي إلى البدعة) مستحق العقوبة باتفاق المسلمين ، وعقوبته تكون تارة بالقتل ، وتارة بما دونه .. ولو قدر أنه لا يستحق العقوبة أو لايمكن

عقوبته ، فلابد من بيان بدعته والتحذير منها ، فإن هذا من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أمر الله به ورسوله . والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء مااشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة ، كبدعة الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة .. وقد قال عبد الرحمن بن مهدي : هما صنفان فاحذرهما : الجهمية ، والرافضة . فهذان الصنفان شرار أهل البدع) ج ٣٥ ص ٤١٣–٤١٥ .

— (وكذلك من كفّر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ، ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولاسنة رسوله ﷺ ، فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف وأكرم المتقون من جميع الطوائف كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله ﷺ وتصلح أمر المسلمين) ج ٣ ص ٤٢٣ .

*— (وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر ، وفجور وطاعة ، ومعصية ، وسنة وبدعة : استحق من الموالاة والثواب بقدر مافيه من الخير ، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب مافيه من الشر ، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة ، فيجتمع له من هذا وهذا) ج ٢٨ ص ٢٠٩ .

*— (ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضوع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ويكون في الآخرة غير معذب ، مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم على العدالة ، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة .. بخلاف من لا تأويل له ..
وكذلك نعلم أن خلقا لايعاقبون في الدنيا مع أنهم كفار في الآخرة ، مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم ، ومثل المنافقين المظهرين الإسلام فإنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في الآخرة كافرون .. وهذا لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب ، وأما الدنيا فإنما يشرع فيها العقاب مايدفع به الظلم والعدوان .. وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس . ولهذا أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس لأجل إفساده في الدين ، سواء قالوا : هو كافر أو ليس بكافر) ج ١٢ ص ٥٠٠ .

*— (ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة ، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة ، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين . حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك ، أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين ، هذا أفضل . فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم ، من جنس الجهاد في سبيل الله ، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب ، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب ومافيها من الدين إلا تبعا ، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء) ج ٢٨ ص ٢٣١–٢٣٢ .

— (وأعداء الدين نوعان : الكفار ، والمنافقون . وقد أمر الله نبيه بجهاد الطائفتين .. فإذا كان أقوام منافقون يبتدعون بدعا تخالف الكتاب ، ويلبسونها على الناس ، ولم يتبين للناس : فسد أمر الكتاب ، وبدل الدين ، كما فسد دين أهل الكتاب قبلنا بما وقع فيه من التبديل الذي لم ينكر على أهله . وإذا كان أقوام ليسوا منافقين ، لكنهم سماعون للمنافقين : قد التبس عليهم أمرهم حتى ظنوا قولهم حقا ، وهو مخالف للكتاب ، وصاروا دعاة إلى بدع المنافقين ... فلابد أيضا من بيان حال هؤلاء ، بل الفتنة بحال هؤلاء أعظم ، فإن فيهم إيمانا يوجب موالاتهم ، وقد دخلوا في بدع من بدع المنافقين التي تفسد الدين ، فلابد من التحذير من تلك البدع ، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم ، بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافق ، لكن قالوها ظانين أنها هدى ، وأنها خير ، وأنها دين ولم تكن كذلك ، لوجب بيان حالهم) ج ٢٨ ص ٢٣٢–٢٣٣ .

— (ولهذا وجب بيان حال من يغلط في الحديث والرواية، ومن يغلط في الرأي والفتيا، ومن يغلط في الزهد والعبادة، وإن كان المخطىء المجتهد مغفورا له خطؤه، وهو مأجور على اجتهاده فبيان القول والعمل الذي دل عليه الكتاب والسنة واجب، وإن كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله. ومن علم منه الاجتهاد السائغ فلايجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له، فإن الله غفر له خطأه، بل يجب لمافيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته، والقيام بماأوجب الله من حقوقه: من ثناء ودعاء

وغير ذلك . وإن علم منه النفاق كما عرف نفاق جماعة على عهد رسول الله ﷺ.. وكما علم المسلمون نفاق سائر الرافضة.. فهذا يذكر بالنفاق. وإن أعلن بالبدعة ولم يعلم هل كان منافقا أو مؤمنا مخطئا ذكر بمايعلم منه فلايحل للرجل أن يقفو ماليس له به علم. ولايحل له أن يتكلم في هذا الباب إلا قاصدا بذلك وجه الله تعالى، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله. فمن تكلم في ذلك بغير علم أو بما يعلم خلافه كان آثما) ج٢٨ ص٢٣٣-٢٣٤

— (جوز طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما : قتل الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وكذلك كثير من أصحاب مالك . وقالوا إنما جوز مالك وغيره قتل القدرية لأجل الفساد في الأرض لا لأجل الردة .. وقد يستدل على أن المفسد متى لم ينقطع شره إلا بقتله فإنه يقتل) ج ٢٨ ص ٣٤٦ .

— (وأما الواحد المقدور عليه من الخوارج والرافضة ، فقد روى عنهما — أعني عمر وعليّ — قتلهما أيضا والفقهاء وإن تنازعوا في قتل الواحد المقدور عليه من هؤلاء ، فلم يتنازعوا في وجوب قتالهم إذا كانوا ممتنعين ، فإن القتال أوسع من القتل ، كما يقاتل الصائلون العداة والمعتدون البغاة ، وإن كان أحدهم إذا قدر عليه لم يعاقب إلا بما أمر الله ورسوله به .

وهذه النصوص المتواترة عن النبي ﷺ في الخوارج قد أدخل فيها العلماء لفظا أو معنى من كان في معناهم من أهل الأهواء الخارجين عن شريعة رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين ، بل هؤلاء شر من الخوارج الحرورية ، مثل الخرمية ، والقرامطة ، والنصيرية ، وكل من اعتقد في بشر أنه إله ، أو غير الأنبياء أنه نبي ، وقاتل على ذلك المسلمين : فهو شر من الخوارج الحرورية . والنبي ﷺ إنما ذكر الخوارج الحرورية لأنهم أول صنف من أهل البدع خرجوا بعده ، بل أولهم خرج في حياته ، فذكرهم لقربهم من زمانه ، كما خص الله ورسوله أشياء بالذكر لوقوعها في ذلك الزمان .. لمعان قامت بهم ، وكل من وجدت فيه تلك المعاني ألحق بهم ، لأن التخصيص بالذكر لم يكن لاختصاصهم بالحكم ، بل لحاجة المخاطبين إذ ذاك إلى تعيينهم ، هذا إذا لم تكن ألفاظه شاملة لهم) ج ٢٨ ص ٤٧٥-٤٧٧ .

— (فأما قتل الواحد المقدور عليه من الخوارج كالحرورية ، والرافضة ، ونحوهم : فهذا فيه قولان للفقهاء ، هما روايتان عن الإمام أحمد ، والصحيح أنه يجوز قتل الواحد منهم ، كالداعية إلى مذهبه ، ونحو ذلك ممن فيه فساد .. وأما تكفيرهم وتخليدهم : ففيه أيضا للعلماء قولان مشهوران : وهما روايتان عن أحمد . القولان في الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم . والصحيح أن هذه الأقوال التي يقولونها التي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول كفر ، وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار بالمسلمين هي كفر أيضا .. ولكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه . فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق ، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له .. فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة ، وكثير من هؤلاء قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه ، ولايعلم أن الرسول بعث بذلك ، فيطلق أن هذا القول كفر ، ويكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها ، دون غيره . والله أعلم) ج ٢٨ ص ٤٩٩-٥٠١ .

— (وكذلك المبتدع الذي خرج عن بعض شريعة رسول الله ﷺ وسنته ، وأستحل دماء المسلمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ وشريعته ، وأموالهم : هو أولى بالمحاربة من الفاسق ، وإن اتخذ ذلك دينا يتقرب به إلى الله ... ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أن هذه البدع المغلظة شر من الذنوب التي يعتقد أصحابها أنها ذنوب . وبذلك مضت سنة رسول الله ﷺ : حيث أمر بقتال الخوارج عن السنة ، وأمر بالصبر على جور الأئمة وظلمهم ، والصلاة خلفهم مع ذنوبهم . وشهد لبعض المصرين من أصحابه على بعض الذنوب أنه يحب الله ورسوله ، ونهى عن لعنته . وأخبر عن ذي الخويصرة وأصحابه — مع عبادتهم وورعهم — أنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية) ج ٢٨ ص ٤٧٠-٤٧١ .

— (فهذه سنة أمير المؤمنين عليّ وغيره ، قد أمر بعقوبة الشيعة : الأصناف الثلاثة ، وأخفهم المفضلة ، فأمر هو وعمر بجلدهم . والغالية يقتلون باتفاق المسلمين ، وهم الذين يعتقدون الإلهية والنبوة في عليّ وغيره ، مثل النصيرية والإسماعيلية .. فإن جميع هؤلاء الكفار أكفر من اليهود والنصارى . فإن لم يظهر عن أحدهم

ذلك كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، ومن أظهر ذلك كان أشد من الكافرين كفرا . فلا يجوز أن يقر بين المسلمين لا بجزية ولا ذمة ، ولا يحل نكاح نسائهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، لأنهم مرتدون من شر المرتدين . فإن كانوا طائفة ممتنعة وجب قتالهم كما يقاتل المرتدون ، كما قاتل الصديق والصحابة أصحاب مسيلمة الكذاب ، وإذا كانوا في قرى المسلمين فرقوا وأسكنوا بين المسلمين بعد التوبة ، وألزموا بشرائع الإسلام التي تجب على المسلمين . وليس هذا مختصا بغالية الرافضة ، بل من غلا في أحد المشائخ وقال : إنه يرزقه ، أو يسقط عنه الصلاة ، أو أن شيخه أفضل من النبي ، أو أنه مستغن عن شريعة النبي ﷺ وأن له إلى الله طريقا غير شريعة النبي ﷺ . أو أن أحدا من المشايخ مع النبي ﷺ كما كان الخضر مع موسى . وكل هؤلاء كفار يجب قتالهم بإجماع المسلمين ، وقتل الواحد المقدور عليه منهم) ج ٢٨ ص ٤٧٤-٤٧٥ .

ثانياً : معاملة أهل السنة والجماعة للمستتر ببدعته تختلف عن المظهر لها والداعي إليها :

وأهل السنة والجماعة لا يعاملون المستتر ببدعته كما يعاملون المظهر لها أو الداعي إليها فالمظهر للبدعة والداعي إليها يتعدى ضرره إلى غيره فيجب كفه والإنكار عليه ومعاقبته بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره ، وأما المستتر ببدعته فينكر عليه سرا ويستر عليه فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله .

— (من خالف الكتاب المستبين ، والسنة المستفيضة ، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لايعذر فيه ، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع .. رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع ، الداعين إليها ، والمظهرين للكبائر .

فأما من كان مستترا بمعصية أو مسرا لبدعة غير مكفرة ، فإن هذا لايهجر ، وإنما يهجر الداعي إلى البدعة ، إذ الهجر نوع من العقوبة . وإنما يعاقب من أظهر المعصية قولا أو عملا . وأما من أظهر لنا خيرا فإنا نقبل علانيته ونكل سريرته إلى الله تعالى ، فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ..

ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر من قبله وبعده من الأئمة كمالك وغيره لايقبلون رواية الداعي إلى بدعة ، ولا يجالسونه ، بخلاف الساكت ، وقد أخرج أصحاب الصحيح عن جماعات ممن رمى ببدعة من الساكتين ، ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع) ج ٢٤ ص ١٧٢-١٧٥ .

— (الهجر الشرعي نوعان :

(أحدهما) بمعنى الترك للمنكرات .

(والثاني) بمعنى العقوبة عليها .

(فالأول) يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة .. بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم أو حضر بغير اختياره .. وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات .. ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان ، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ..

(والنوع الثاني) الهجر على وجه التأديب ، وهو هجر من يظهر المنكرات ، يهجر حتى يتوب منها ، كما هجر النبي ﷺ والمسلمين : الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم ، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا . فهنا الهجر بمنزلة التعزير . والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات ، كتارك الصلاة والزكاة ، والتظاهر بالمظالم والفواحش ، والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع .

وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة : إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ، ولا يصلى خلفهم ، ولا يؤخذ عنهم العلم ، ولا يناكحون . فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا ، ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية ، لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة ، بخلاف الكاتم فإنه ليس شرا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، مع علمه بحال كثير منهم .. فالمنكرات الظاهرة يجب إنكارها بخلاف الباطنة فإن عقوبتها على صاحبها خاصة) ج ٢٨ ص ٢٠٣-٢٠٦ . ج ٢٨ ص ٢١٦-٢١٧ .

— (من فعل شيئا من المنكرات ، كالفواحش والخمر والعدوان وغير ذلك ، فإنه يجب الإنكار عليه بحسب القدرة .. فإن كان الرجل مستترا بذلك ، وليس معلنا له ، أنكر عليه سرا وستر عليه .. إلا أن يتعدى ضرره ، والمتعدي لابد من كف عداونه ، وإذا نهاه المرء سرا فلم ينته ، فعل مايتكف به من هجر وغيره إذا كان ذلك أنفع في الدين .

وأما إذا أظهر الرجل المنكرات ، وجب الإنكار عليه علانية ولم يبق له غيبة ، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره ، فلا يسلم عليه ، ولايرد عليه السلام ، إذا كان الفاعل لذلك متمكنا من ذلك من غير مفسدة راجحة . وينبغي لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتا كما هجروه حيا ، إذا كان في ذلك كف لأمثاله من المجرمين ، فيتركون تشييع جنازته) ج ٢٨ ص ٢١٧-٢١٨ .

— (وهذان النوعان يجوز فيهما الغيبة بلا نزاع بين العلماء : (أحدهما) أن يكون الرجل مظهرا للفجور ، مثل الظلم والفواحش والبدع المخالفة للسنة ، فإذا أظهر المنكر وجب الإنكار عليه بحسب القدرة .. وأن يهجر ويذم على ذلك .. بخلاف من كان مستترا بذنبه مستخفيا ، فإن هذا يستر عليه ، لكن ينصح سرا ، ويهجره من عرف حاله ليتوب ، ويذكر أمره على وجه النصيحة .

(النوع الثاني) أن يستشار الرجل في مناكحته ومعاملته أو استشهاده ، ويعلم أنه لا يصلح لذلك ، فينصحه مستشاره ببيان حاله) ج ٢٨ ص ٢١٩-٢٢٠

— (وإذا كان الرجل يترك الصلوات ويرتكب المنكرات ، وقد عاشره من يخاف أن يفسد دينه : بيّن أمره له لتتقي معاشرته . وإذا كان مبتدعا يدعو إلى عقائد تخالف الكتاب والسنة ، أو يسلك طريقا يخالف الكتاب والسنة ، ويخاف أن يضل الرجل الناس بذلك : بيّن أمره للناس ليتقوا ضلاله ويعلموا حاله . وهذا كله يجب أن يكون على وجه النصح وابتغاء وجه الله تعالى ، لا لهوى الشخص مع الإنسان : مثل أن يكون بينهما عداوة دنيوية أو تحاسد أو تباغض أو تنازع على الرئاسة ، فيتكلم بمساوئه مظهرا للنصح وقصده في الباطن الغض من الشخص واستيفاؤه منه ، فهذا من عمل الشيطان و « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » بل يكون الناصح قصده أن الله يصلح ذلك الشخص ، وأن يكفي

المسلمين ضرره في دينهم ودنياهم ، ويسلك في هذا المقصود أيسر الطرق التي تمكنه) ج ٢٨ ص ٢٢٠-٢٢١ .

— (إن الله تعالى أباح من قتل النفوس مايحتاج إليه في صلاح الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ، ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه ، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضره كفره إلا على نفسه . ولهذا قال الفقهاء : إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساكت) ج ٢٨ ص ٣٥٥ .

ثالثا: الضوابط الشرعية عند أهل السنة والجماعة في معاملة أهل البدع :

وأهل السنة والجماعة إذا كانوا يكشفون أهل البدعة للناس ويبينون أمرهم وينكرون عليهم باللسان واليد ، فإنما يقومون بذلك من خلال ضابطين شرعيين أساسيين : (أحدهما) أن يكون ذلك كله إخلاصا لله وطاعة له وموافقة لأمره وأملا في الإصلاح ، لا أن يكون ذلك لهوى النفس أو استيفاء من أحد أو عداوة دنيوية له . (والضابط الآخر) أن يكون ذلك كله من خلال عمل شرعي مأمور به بحيث يحقق المصلحة ويدرأ المفسدة حسب الأحوال والظروف المختلفة ، وإلا لم يكن العمل مشروعا ولا مأمورا به .

— (وإذا عرف هذا ، فالهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله : فالطاعة لابد أن تكون خالصة لله ، وأن تكون موافقة لأمره ، فتكون خالصة لله صوابا . فمن هجر لهوى نفسه . أو هجر هجرا غير مأمور به : كان خارجا عن هذا . وماأكثر ماتفعل النفوس ماتهواه ، ظانة أنها تفعله طاعة لله . والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث ... فهذا الهجر لحق الإنسان حرام ، وإنما رخص في بعضه ، كما رخص للزوج أن يهجر إمرأته في المضجع إذا نشزت ، وكما رخص في الهجر ثلاث . فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله ، وبين الهجر لحق نفسه . (فالأول) مأمور به (والثاني) منهي عنه ، لأن المؤمنين أخوة) ج ٢٨ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

— (وهذا لأن الهجر من (باب العقوبات الشرعية) فهو من جنس الجهاد في سبيل الله . وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله . والمؤمن

فإذا لم يمكن إلا بالهجرة تعينت ولا يحل سبهم عموما ورميهم بالنفاق بل السب والرمي بالنفاق يقع على الصفات المذكورة في الكتاب والسنة ، فيدخل فيها بعض أهل ماردين وغيرهم . وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة : فيها المعنيان ، ليست بمنزلة دار السلم التي تجري عليها أحكام الإسلام ، لكون جندها مسلمين ، ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار ، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه) ج ٢٨ ص ٢٤٠-٢٤١ .

خامساً : موقف أهل السنة والجماعة من الصلاة خلف أهل البدع :

وشعار أهل السنة إذا صاروا في مدينة من مدائن المسلمين صلاة الجمع والجماعات والأعياد وموالاة المؤمنين .

— (ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات ، لايَدَعُون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم . فإن كان الإمام مستورا لم يظهر منه بدعة ولا فجور صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه لاتجوز الصلاة إلا خلف من علم باطن أمره ، بل مازال المسلمون من بعد نبيهم يصلون خلف المسلم المستور ... وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة .

وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب أن لا يصلي إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب ، كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكر ذلك لمن سأله ، ولم يقل أحمد إنه لا تصح إلا خلف من أعرف حاله .

ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع ، وكانوا باطنية ملاحدة ، وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية . أمر أصحابه أن لايصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك . ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة ، ثم صار العلم والسنة يكثر بها

ويظهر . فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين ، ومن قال إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لايعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ...

فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولايعاديهم . وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وإذا كان قادرا على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه ، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه . وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا » .
وإن كان في هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره ، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم . وأما إذا ولى غيره بغير إذنه وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلا وضلالا ، وكان قد رد بدعة ببدعة) ج ٣ ص ٢٨٠-٢٨٦ .

سادسا: موقف أهل السنة والجماعة من تفسيق أو تكفير أهل البدع :

أهل السنة يحتاطون بصفة عامة عند تكفير أهل البدع وخاصة إذا كانوا متأولين تأويلا مسوغا .

— (ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين . واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم . ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار . ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم .

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفّر الأخرى ولاتستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيها بدعة محققة ، فكيف إذا كانت المكفّرة لها مبتدعة أيضا ؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، والغالب أنهم جميعا جهال بحقائق مايختلفون فيه .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض ، لاتحل إلا بإذن الله ورسوله ... وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إنه قد شهد بدرا ، ومايدرك أن الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وهذا في الصحيحين) ج ٣ ص ٢٨٢-٢٨٤ .

الباب الثالث

وهو استعراض عام لنتائج البحث مع التركيز على المراحل التي يمكن أن تمر بها جماعة أهل السنة والجماعة تحت الظروف المختلفة ثم النظر إلى الواقع الإسلامي المعاصر نظرة عامة على ضوء نتائج البحث .

وهو يحتوي على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : نتائج البحث (تلخيص مركز للباب الثاني) .

الفصل الثاني : مراحل وأحوال الفرقة الناجية .

الفصل الثالث : نظرة إلى الواقع .

الفصل الأول
نتائج البحث
(تلخيص مركز للباب الثاني)

١ ـــ أهل السنة والجماعة هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن اتبعهم بإحسان وسار على دربهم والتزم باصولهم ومنهجهم العلمي والعملي فهم لايأخذون دينهم علما وعملا إلا من كتاب ربهم وسنة نبيهم في إطار من فقه صحابة رسول الله ﷺ لا يقدمون على ذلك أو يعارضونه بعقل أو رأي أو قياس أو ذوق أو وجد أو مكاشفة أو غير ذلك .

فكل من التزم بالقرآن والسنة وإجماع صحابة رسول الله ﷺ كان من أهل السنة والجماعة فهذه هي الأصول المعصومة عندهم وماعدا ذلك فليس معصوما عندهم ، بل كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ ، فمقالات أئمتهم تابعة لسنة نبيهم وليست مقدمة عليها ، وكل اجتهاد عندهم يعرض أولا على القرآن والسنة وفقه السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وأئمة العلم والدين قبل أن يقبل أو يرد .

وأهل السنة والجماعة هم أهل التجمع والائتلاف ، وهم الامتداد الطبيعي والمسار الاصلي لهذا الدين الملتزمون بالجمل الثابتة من الكتاب والسنة والإجماع . البعيدون عن مواطن الشبهات التي تفرق الجمع وتشتت الشمل لأن الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة .

٢ ـــ وأهل السنة والجماعة لذلك ليس لهم إسم يسمون به إلا (أهل السنة والجماعة) وهذا بخلاف غيرهم من أهل البدع الذين انتحلوا لأنفسهم أسماء أرادوا أن تميزهم عن غيرهم ، أو سماهم غيرهم فقبلوا تسميته لهم . وأما أهل السنة فليس لهم إسم إلا هذا الإسم . وإن كان غيرهم قد يسميهم بأسماء باطلة ، فإنه مامن فرقة منحرفة

إلا وابتدعت لأهل السنة اسما يناسب ماخالفها فيه أهل السنة . ومع ذلك بقي (أهل السنة) لم يلزمهم اسم من هذه الأسماء الباطلة .

روى ابن عبد البر قال : (جاء رجل إلى مالك فقال : يا أبا عبد الله أسألك عن مسألة أجعلك حجة فيما بيني وبين الله عز وجل . قال مالك : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، سل . قال : من أهل السنة ؟ قال : أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لاجهمي ، ولاقدري ، ولارافضي)[1]. وهكذا يحدد الإمام مالك رحمه الله ويعرف أهل السنة بأنهم ليس لهم لقب يعرفون به إلا اللقب المسئول عنه (أهل السنة) .

٣ ــ ولذلك كان أهل السنة والجماعة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ لايجمعهم بلد واحد ، ولا ينتمون لعشيرة أو قبيلة معينة ، ولا يحصرهم تحزب أو تجمع محدود أو محدد ، بل هم منتشرون في غالب البلاد ، أفرادا وجماعات ، لايجمعهم تخصص معين ، بل فيهم المحدثون والفقهاء والزهاد والمجاهدون المقاتلون والدعاة الصابرون والعوام المقلدون والأمراء والسياسيون .

يقول النووي : (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين : منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير . ولايلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض)[2].

٤ ــ وداخل هذه الدائرة العامة الشاملة التي تحيط بأهل السنة والجماعة وتحصرهم حول مركز ثابت : هو الكتاب والسنة وفقه السلف ، يتفاوت الناس ــ أفرادا وجماعات ــ قربا أو بعدا عن مركز الدائرة ، فالبعض أعلم بالسنة وأصبر عليها من غيره ، والبعض أعلم في جانب معين ، والبعض أصبر وأكثر التزاما بالسنة في جانب آخر وهكذا .

وداخل هذه الدائرة الكبرى يجتمع الدين كله علما وعملا ، ويكمل أهل السنة بعضهم بعضا ، فماليس عند هذا ــ من علم أو عمل ــ تجده عند غيره ، وماعند ذلك من خير قد لاتجده عند هذا ، ولكن مجموع الدين والشرع الذي أتى به

(١) الانتقاء ص ٣٥ .
(٢) شرح النووي ٦٧/١٣ .

النبي ﷺ عن ربه لايخرج عن جماعة السنة سواء في العقائد أو العبادات أو مناهج النظر أو المقاصد أو السياسات الشرعية أو غير ذلك من أنواع الخير .

وداخل هذه الدائرة قد يختلف المجتهدون فيما بينهم على المسائل العلمية أو العملية ، دون أن يخرج الحق عن حدود جماعتهم ، لأن علماءهم وأئمتهم يقومون مقام النبوة في حفظ هذا الدين ، كل في المجال الذي يسره الله له .

وداخل هذه الدائرة يتفاوت الناس في الخير والشر والعدل والظلم والصبر والبغي والكف والعدوان ، فأهل السنة ــ كغيرهم ــ بشر عاديون فيهم الخطأ والفسق والمعصية ، ويختلط في جماعتهم الخير والشر ، ولكن كل خير في غيرهم فهو فيهم أكثر ، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر .

وأهل السنة ــ لما كانوا هم أهل الهدى ودين الحق ، ولما كان الله قد وعد بنصرة هذا الدين وإظهاره على الدين كله ــ كانوا هم أهل الطائفة المنصورة التي يظهرها الله على الحق حتى تقوم الساعة ، فمنهم تخرج الطائفة الظاهرة بالقلم واللسان ، ومنهم تخرج الطائفة الظاهرة باليد والقتال[1].

وأهل (السنة والجماعة) مهما وقع بينهم من خلاف ــ داخل هذه الدائرة العامة الشاملة التي (تجمعهم) أفرادا وجماعات ــ فهم ملتزمون (بالجماعة) محافظون عليها عاملون على جمع الشمل والائتلاف واستمرار الولاء العام لهذه (الجماعة) وعصمة الدم والمال والعرض وأخوة الدين لكل فرد في هذه (الجماعة) .

٥ ــ وأهل السنة والجماعة يتميزون بخصائص سلوكية وأخلاقية تمثل تراثا مضيئا لهم ، لايقل أهمية في ميزان الحق عن ميراث العلم والهدى الذي اختص به الله عز وجل هذه الجماعة . فالنبي ﷺ كما بعثه الله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس والرحمة لهم بلا عوض ، وبالصبر على أذاهم واحتماله ، وبالحلم والكرم .

فأهل السنة يعلمون الحق ويلتزمون به ويدعون غيرهم إليه ويجاهدون عليه ، ويبذلون أنفسهم وأموالهم لمنفعة الخلق وصلاحهم ، ويصبرون منهم على الأذى ،

(١) يقول الشيخ ابو بطين : (وليس المراد الظهور بالسيف ، بل بالحجة دائما وبالسيف أحيانا) أهـ : الرسائل النجدية (٨: ٢٢٨) .

ويتجاوزون عن إساءة المسيء وخطأ المخطىء ، ويعفون ويدعون بالهداية والرشاد للجميع . ويحبون الخير للجميع . ويعلمون أن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، فيلتزمون معالي الأخلاق التي يحبها الله ويتجنبون سفاسفها التي يكرهها الله .

٦ — وأهل السنة إذن هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ولكنهم يقومون بهذا الأمر على ماتوجبه الشريعة ، فلا يخلون خلال ذلك بالأصل الأول والقاعدة العظيمة : وهي الحفاظ على (الجماعة) وتأليف القلوب واجتماع الكلمة ونبذ التفرق والاختلاف ، ويعلمون أن هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أوجبه الله ورسوله ﷺ .

وهم لذلك يحملون أمانة مزدوجة : أمانة العلم والدعوة والجهاد ، وأمانة الحفاظ على (الجماعة) بمعناها الشرعي الشامل ... وهم يحققون ذلك التوازن الدقيق على هدى من الشرع الحكيم وحده ، متحررين من سلطان الهوى وإلف العادة وسيطرة المذهب وسطوة الطائفة أو الحزب أو الطريقة أو ما شابه ذلك كله .

وهم لذلك يوالون بعضهم بعضا ولاءا عاما ، بغض النظر عن انتماءاتهم المختلفة لحزب أو جماعة أو تيار أو اجتهاد خاص ، بل الأصل أن يكونوا جميعا يدا واحدة متعاونين على البر والتقوى ، لأن هذا الميثاق العام مع الله أبدى من أي ميثاق خاص مع البشر ، فلا يقيده ولا يخصصه أي ميثاق آخر بل هو الحاكم على أي ميثاق خاص ولا طاعة لمخلوق إلا في طاعة الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله .
فأهل السنة ولاؤهم الأول للحق وحده و (الجماعة) الكبرى بمعناها الشرعي الشامل ، وهم — من هذا المنطلق — ينظرون إلى كل فرد أو طائفة أو تجمع على هذا الأساس وحده ، وليس على أساس من التعصب الجاهلي المقيت للقبيلة أو المدينة أو الدولة أو المذهب أو الطريقة أو الحزب أو الزعامة فهم يقدمون من قدمه الله ورسوله ويؤخرون من أخره الله ورسوله بمقياس الدين والتقوى ، ولايمتحنون الناس بأمور وشعارات ما أنزل الله بها من سلطان يوالون ويعادون عليها ويفرقون بها بين الأمة . بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان .

٧ — وأهل السنة والجماعة متفقون على أصول هامة أصبحت شعارا لهم ، وكل فرقة مخالفة لهم تفاصلهم على واحدة أو أكثر من هذه الأصول .

— فعقيدتهم في صفات الله عز وجل هي : إثبات بلا تكييف ، وتنزيه بلا تعطيل .

— وعقيدتهم في القرآن : أنه كلام الله غير مخلوق .

— وهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لايراه أحد في الحياة الدنيا .

— وهم متفقون على رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار في الجنة .

— ويؤمنون بكل ماأخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت : كفتنة القبر وعذابه ونعيمه ، وعودة الأرواح والأجساد ، ونصب الموازين ، نشر الدواوين ، والحوض ، والصراط ، والشفاعة .

— وهم يؤمنون بالقدر خيره وشره : بعلم الله القديم وباللوح المحفوظ ، وبمشيئته النافذة وقدرته الشاملة : فهو خالق العباد وخالق أفعالهم ، ومع ذلك أمرهم بطاعته وطاعة رسله ، ويحب أهل طاعته ، ويرضى عنهم ، ونهاهم عن معصيته ، ولايحب الكافرين ، ولايرضى عن الفاسقين ، ولايأمر بالفحشاء ، ولايرضى لعباده الكفر ، ولايحب الفساد .

— وأهل السنة يقولون : إن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، ويعتقدون أن للإيمان أصلا وفروعا ، فلايزول الإيمان إلا بزوال أصله ، فلا يكفرون أحدا من أهل القبلة بمطلق المعاصي إلا أن يزول أصل الإيمان . ويجوزون اجتماع العذاب والثواب في حق الشخص الواحد ، ولكنهم لايوجبون العذاب أو الثواب لمعين إلا بدليل خاص .

— وهم يحبون ويتولون صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته وأزواجه ، ولا يعتقدون بعصمة أحد غير رسول الله ﷺ .

— وهم يصدقون بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات .

— وأهل السنة مجمعون على قتال من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين .

— وهم يغزون مع أمرائهم — أبرارا كانوا أم فجارا — من أجل إقامة شرائع الإسلام .

— وهم يقبلون فيما بينهم تعدد الاجتهادات في الأمور التي وسع السلف الخلاف فيها ، دون أن يضلل المخالف في هذه المسائل : مثل النزاع بين

الصحابة في أن محمدا ﷺ هل رأى ربه ليله المعراج ؟ ومثل النزاع المشهور في تكفير تارك المباني الأربعة ، ومثل الخلاف في عثمان وعلي رضي الله عنهما أيهما أفضل .

٨ــ والمخالفون للسنة من أهل البدع والضلال والتفرق يدفعهم إلى ذلك ، الجهل والظلم والغلو ، فإن مبدأ البدع هو القول بالظن والهوى مع الغلو والتعصب للأشخاص والمقالات التي يسوغ فيها الاجتهاد والمخالفة ، مما يؤدي إلى غلبة الأهواء وكثرة الآراء وتغلظ الاختلافات ووقوع الافتراق وحصول العداوة والشقاق .
والمخالفون للسنة لهم عدة مقامات : فهم أولا يقدمون بين يدي الله ورسوله ــ تفريطا وجهلا أو هوى وعصيانا ــ فيخرجون عن الحق ويجانبون السنة ، فيجعلون ماليس بسيئة سيئة ، وماليس بحسنة حسنة . ثم هم بعد ذلك يقرنون بين الخطأ والإثم ، فيؤثمون المخالفين لهم ، وينصبون لأنفسهم شخصا أو مقالة أو شعارا يوالون ويعادون عليها ، ويفرقون بين الأمة بها ، ويفاصلون الجماعة على ذلك ويخرجون عليها . ثم يعتقدون بعد ذلك اعتقادات باطلة في المخالفين من أهل السنة والجماعة مثل التكفير والتفسيق والتخليد .
ثم يرتبون على ذلك أحكاما ابتدعوها في حق المخالف من استحلال الدماء والأموال والأعراض ، فيبادرون جماعة أهل السنة بالظلم والبغي والعدوان .

٩ــ والمخالفون للسنة أنواع :

النوع الأول : من يكون قد خالف السنة بعد اجتهاد شرعي معتبر ولكنه خاطىء ، أو لتأويل بعيد ــ خاصة مع إيراد الشبهات المخالفة ــ دون أن يكون قصده مخالفة الله ورسوله . بل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا بالله ورسوله .

والنوع الثاني : يكثر في المتأخرين الذين قل اعتمادهم على القرآن والسنة ، ولجأوا إلى مقالات ابتدعها شيوخهم دون أن يعلموا حقيقتها ومآلاتها ، ولو علموا مخالفتها للسنة لرجعوا عنها ولم يقولوا بها .

والنوع الثالث : من يكون قد خالف السنة لنوع من الجهل والظلم والهوى مع مايصاحب ذلك من البغي والعدوان أو الفسق والمعصية .

وهذه الأصناف السابقة أصحابها ليسوا كفارا ولا منافقين بل مؤمنين بالله ورسوله باطنا وظاهرا . حتى إن بعضهم قد يخالف السنة وهو يدافع عنها ضد أعدائها فيرد بدعة كبيرة ببدعة صغيرة ، اجتهادا منه دون أن يتعمد أن يقدم بين يدي الله ورسوله .

بل هؤلاء غايتهم إما أن يكونوا : مجتهدين مخطئين مغفور لهم خطؤهم لأن مقصودهم متابعة الرسول حسب إمكانهم ، فمنهم من يخالف السنة في أمور عظيمة ، ومنهم من يخالفها في أمور دقيقة ، دون أن يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون . وإما أن يكونوا مفرطين فيما يجب عليهم من اتباع القرآن والسنة أو متعدين حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها . أو متبعين لهوى بغير هدى من الله ، فهؤلاء ظالمون لأنفسهم ، وهم من أهل الوعيد ، الذين تختلط معهم الحسنات والسيئات .

والنوع الرابع : من المخالفين للسنة : المنافقون الزنادقة الذين يبطنون الكفر والغل والغيظ على المسلمين ، ويكثر هؤلاء في الرافضة والجهمية ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، فيكون مواليا لهم بالمحبة والتعظيم والموافقة . فهؤلاء كفار في الباطن ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضا .

والنوع الخامس : المشركون الضالون من عباد الأضرحة والشيوخ والموتى والأصنام والأوثان عموما ، ومن أصحاب عقائد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، فهؤلاء يستتابون عن شركهم إذا أظهروه ، وإلا فتضرب أعناقهم ويقتلون كفارا مرتدين .

١٠ــ والفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة هم : المرجئة والخوارج والرافضة والقدرية والجهمية .

أ) (**فالمرجئة**) ذهبوا أولا إلى أن الأعمال ليست من الإيمان وكان عامة نزاعهم في الألفاظ وليس في الأحكام ، ثم تغلظت مقالاتهم حتى توقفوا في قيمة الأعمال ابتداء ، وذهب بعضهم إلى عدم وجوب الفرائض ولا اجتناب المحارم والاكتفاء بالإيمان .

ب) (**والخوارج**) أصل مذهبهم : تعظيم القرآن الكريم وطلب اتباعه ، لكن فهموا منه مالم يدل عليه ، وخرجوا عن السنة والجماعة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالما ، فلم ينقلوا لحكمه ولا لحكم الأئمة بعده ، ولم يتبعوا السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك . ويكفّرون من خالفهم — لأن من خالف القرآن عندهم يكفر ولو كان مخطئا أو مذنبا مع اعتقاده للوجوب والتحريم — ويستحلون منه — لارتداده عندهم ، مالا يستحلون من الكافر الأصلي ، وبدعتهم بتكفير المسلمين بالذنوب والخطايا هي أول بدعة ظهرت في الإسلام .

ج) (**والرافضة أو الشيعة**) أصل قولهم : إن النبي ﷺ نص على (عليّ) رضي الله عنه نصا قاطعا للعذر ، فذهب (المفضلة) منهم إلى تفضيله على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وذهب (السابة) منهم إلى سب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وذهب (الغلاة) منهم إلى تأليه عليّ رضي الله عنه .

والرافضة يقولون بعصمة (عليّ) رضي الله عنه وأن من خالفه كفر ، وأن الصحابة من المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام المعصوم واتبعوا أهواءهم وبدلوا الدين وغيروا الشريعة وظلموا واعتدوا . بل كفروا كلهم إلا نفرا قليلا .

والأئمة عندهم معصومون يعلمون كل شيء وهم مصدر الحق والعلم لا القرآن ولا السنة . وهم من أكذب الطوائف وأكثرهم حقدا على أهل السنة ويسمونهم (الجمهور) ويعتبرونهم أشد كفرا من اليهود والنصارى لأنهم مرتدون عندهم ، ولذلك يوالون الكفار والمشركين وأهل الكتاب ضد أهل السنة والجماعة . فهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة ، وأشدهم ضررا وأكثرهم خطرا على الدين وأهله . ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق (كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم) وغالب أئمتهم زنادقة يظهرون الرفض لأنه طريق إلى هدم الإسلام .

د) (**والقدرية أو المعتزلة**) عجزت عقولهم عن الجمع بين الإيمان بالقدر والإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد ، وظنوا أن ذلك ممتنع ،

فذهبوا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرد إلا ما أمر به ولم يخلق شيئا من أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقا . وهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم من أهل السنة (الحشوية) أي العامة .

وأصولهم خمسة : (التوحيد) وهو عندهم يتضمن التعطيل ونفي الصفات ، و (العدل) عندهم يتضمن التكذيب بالقدر والغلاة منهم ينفون علم الله القديم ، و (المنزلة بين المنزلتين) فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمنا بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافرا ، فنزلوه منزلة بين منزلتين ، و (إنفاذ الوعيد) عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار ، ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك ، كما تقوله الخوارج ، و (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف .

• و (**الجهمية**) ظنوا أيضا أن القدر يناقض الشرع ، فنفوا حكمة الله وعدله ، وقالوا إن العبد لا فعل له البته ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، ونفوا صفات الله كلها وأسماءه إلا القادر فقط لأن العبد ليس بقادر . وقالوا لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر ، فالجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه ، وماذكر أنه يحبه وما ذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة ، يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية وبين الحلال والحرام . وجعلوا الإيمان مجرد المعرفة فقط . ولا فرق عندهم بين عبادة الله وعبادة غيره بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ومنتهى توحيدهم هو توحيد المشركين والعارف عندهم هو الذي لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة وينكر الشرع والنبوات . فهم إما باطنية منافقون وإما مشركون ظاهرا وباطنا .

١١— وأهل السنة يفرقون بين البدع الدقيقة والمنازعات اللفظية وبين البدع المغلظة والخلاف على الحقائق والمعاني والأصول الكبرى ولهذا فهم يقسمون هذه البدع إلى عدة أنواع :

أ — بدع لاخلاف على عدم تكفير أصحابها ، مثل (المرجئة) و (الشيعة المفضلة)

ب — وبدع هناك خلاف على تكفير أو عدم تكفير أصحابها، مثل (الخوارج) و (الروافض)

ج — وبدع لا خلاف على تكفير أصحابها — على الإطلاق وليس على التعيين مثل (الجهمية المحضة) .

ولكنهم مع ذلك يفرقون بين الحكم المطلق على أصحاب البدع بالمعصية أو الفسق أو الكفر ، وبين الحكم على شخص معين — ممن ثبت إسلامه بيقين — صدرت عنه إحدى هذه البدع بأنه عاص أو فاسق أو كافر ، فلا يحكمون عليه بذلك حتى يبيّن له مخالفة قوله للسنة بإقامة الحجة وإزالة الشبهة . تماما كما يفرقون بين نصوص الوعيد المطلقة وبين استحقاق شخص بعينه لهذا الوعيد في أحكام الآخرة ، فالمعين قد يلتغي فيه حكم الوعيد بتوبة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، فلا يشهد لمعين بجنة أو نار إلا بدليل خاص .

والتكفير من الوعيد ، فإنه وإن كان القول المبتدع تكذيبا لما قاله الرسول ﷺ ، لكن قد يكون قائله حديث عهد بإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة ، أو لم تثبت عنده النصوص ، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئا ، فالمتأول المجتهد في متابعة الرسول ﷺ والعامي المقلد الحريص على الاقتداء بالنبي ﷺ ، مغفور له خطؤه .

فأهل السنة لايكفّرون أحدا — من المسلمين — وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة الرسالية التي يتبين معها أنه مخالف للرسل . فإن الحكم يتوقف على ثبوت شروطه، وانتفاء موانعه ، ومن ثبت إسلامه بيقين ، لايزول عنه بالشك، بل لايزول إلابعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

وأهل السنة لايجوزون تكفير أو تفسيق أو حتى تأثيم العلماء المجتهدين لمجرد اجتهاد خاطىء أو تأويل بعيد خاصة في مسائل الظنيات المختلف عليها

وهم يفرقون بين المبتدعة من أهل القبلة — مهما كان حجم بدعتهم — وبين من علم كفره بالإضطرار من دين الإسلام ، كالمشركين وأهل

الكتاب . فيجرون على المبتدعة حكم الإسلام الظاهر ، مع علمهم أن كثيرا منهم منافقون النفاق الأكبر وفي الدرك الأسفل من النار ، وكفار في الباطن ومن علم حاله منهم فهو كافر في الظاهر أيضا .

١٢ — والبدع التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ، هي التي اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة ، كبدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجهمية . ومن خالف الكتاب المستبين ، والسنة المستفيضة ، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لا يعذر فيه ، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع .

وأهل السنة والجماعة المقصد الأول لهم تجاه أهل البدع هو : بيان حالهم وتحذير الأمة من مقالاتهم الفاسدة ، مع إظهار السنة والتعريف بها ، ثم قمع البدع ودفع بغي وعدوان أهلها .

وقد اتفق أئمة السنة على أن هذه البدع المغلظة شر من الذنوب التي يعتقد أصحابها أنها ذنوب ، ولذلك وجب كف أهلها ودفع شرهم ولو بالقتال أو القتل متى لم يندفع شرهم إلا بذلك ، والسلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس ، لأجل إفساده في الدين ، سواء قالوا هو كافر أو ليس بكافر ، فالعبرة بما يشرع في الدنيا من عقوبات إنما هو مايدفع به الظلم والعدوان ويرفع به الضرر والفساد ، وعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس .

والرجل قد يعلن بالبدعة لخطأ في الاجتهاد أو لتأويل بعيد ، فيختلط فيه السنة بالبدعة والخير بالشر ، فيوالى ويثاب على مامعه من سنة وخير ، ويعادى ويعاقب على مامعه من بدعة وشر ، وقد يترك الإمام وأهل العلم والدين الصلاة عليه زجرا عن بدعته في الظاهر ، ولكن يدعون غيرهم يصلون عليه ويستغفرون هم له في الباطن . ومن عرف وظهر نفاقهم كغلاة الرافضة من نصيرية وإسماعيلية وغيرهم ، وكالغلاة في المشايخ من عبدة الأحياء والأموات والأضرحة والقباب ، وكأرباب وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، فهؤلاء مرتدون من شر المرتدين ، وأكفر من الكافرين الأصليين وأهل الكتاب ، ولا يحل نكاح نسائهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، ولا يقرون بين المسلمين لا بجزية ولا ذمة ، وإن كانوا طائفة ممتنعة وجب قتالهم كما يقاتل المرتدون .

وأهل السنة يفرقون بين الداعية وغير الداعية من أهل البدع . فالداعية أظهر البدع على الملأ فاستحق العقوبة من هجر ، ورد الشهادة ، وعدم الصلاة خلفه ، وعدم أخذ العلم عنه ، وعدم منكاحته ، فهذه عقوبة له حتى ينتهي ، أما الكاتم والمستتر ببدعة — غير مكفرة — فغاية أمره أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، فينكر عليه سرا ويستر عليه ، إلا أن يتعدى ضرره إلى غيره ويخاف أن يفسد الناس ويضلهم ، فيبين لهم أمره ليتقوا معاشرته ويتقوا ضلاله ويعلموا حاله .

وأهل السنة والجماعة عندما يكشفون أهل البدع للناس ويبينون أمرهم ويحذرون منهم وينكرون عليهم باللسان والهجر واليد ، فإنما يقومون بذلك كله من خلال ضابطين شرعيين : (أحدهما) أن يكون منطلقهم الوحيد في ذلك هو الإخلاص لله ولرسوله والمسلمين ، والطاعة لله ، والرجاء والأمل في الإصلاح ، وكف الضرر ، والرحمة والدعاء بالخير للجميع ، لا أن يكون الأمر يدخله أدنى شبهة من هوى شخصي أو عداوة دنيوية أو تحاسد وتباغض أو تنازع على رئاسة بحيث يظهر المرء النصح وقصده في الباطن الغض من الشخص والاستيفاء منه . فيخوض في عرضه وماله ودمه بلا سلطان من الله وبلا قصد صحيح ، بل لحق النفس لا لحق الشرع .

(والضابط الآخر) أن يكون الإنكار بالهجر أو اليد أو اللسان من خلال عمل شرعي مأمور به تتحقق من خلاله المصالح الشرعية المعتبرة وتدرأ به المفاسد المعتبرة شرعا ، حسب الظروف والأ- رال المختلفة ، وإلا لم يكن العمل مشروعا ولا مأمورا به . فالهجر مثلا إذا لم يردع المبتدع بل يزيد شره على الهاجر الضعيف بحيث تكون مفسدة ذلك العمل راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر . بل لعل تأليف قلوب بعض المبتدعة يكون أنفع من الهجر . والأصل عصمة دم المسلمين وأموالهم وأعراضهم . فإذا اختلط المبتدعة بغيرهم ، عومل كل ، بما يظهر منه وبما يستحقه شرعا ، ولايؤخذ أحد بجريرة أحد ، ولا ترد بدعة ببدعة أخرى . فالأصل على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين التي يرتفع عليها شعار السنة أن يصلي مع المسلمين الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم . وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها . ولايجوز تكفير المسلم بذنب

فعله أو بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة ، بل وحتى لو كان المسلم متأولا في تكفير غيره أو قتاله لم يكفر بذلك بل له ولاء وحرمة غيره من المسلمين مالم يتعد ضرره إلى حرمة غيره من المسلمين[1]. وإذا كثرت الأهواء وأحب المسلم أن لايصلي إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب والاستبراء للدين فله ذلك دون أن ينكر على مخالفه ودون أن يضيع الواجبات من جمع وجماعات (عند من يرى وجوب صلاة الجماعة) لأن الصلاة خلف مستور الحال جائزة باتفاق أهل السنة . وعدم إعادة الصلاة بعد أدائها خلف المبتدع جائزة أيضا . ومن حرم أو أبطل الصلاة خلف مستور الحال فقد خالف السنة والجماعة . والصلاة والدعاء لا تجوز على من علم نفاقه ، فكل من لم يعلم كفره أو نفاقه جازت الصلاة عليه والاستغفار له ، وإن كانت فيه بدعة ، وإن كان له ذنوب .

(١) فهنا يشرع في حقه ما يكف شره ويمنع بغيه على غيره .

الفصل الثاني

مراحل وأحوال الفرقة الناجية

لقد وردت النصوص تأمر بالجماعة والتزامها ومن خلال ماسقناه سابقا من الأحاديث يتبين :

(أ) أن منها نصوصا تأمر بالجماعة أي التزام مذهب أهل السنة والجماعة ، مثل أحاديث الافتراق ، وحديث « لاتزال طائفة من أمتي على الحق » ، وحديث الأمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ﷺ .

(ب) وفيها نصوص تأمر باتباع الجماعة التي لها أمير ، ومنه حديث : « من رأى من أميره شيئا فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميته جاهلية » وحديث « من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة .. » وغيرها .

(ج) وفيها نصوص تفصل الأمر فتأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم إن وجدا وإلا فاعتزال الفرق كلها . وهذا دل عليه حديث حذيفة — رضي الله عنه — برواياته المختلفة .

ومن هنا يتبين أن الفرقة الناجية (أو أهل السنة) لها أحوال مختلفة :

الحالة الأولى :

أن يكون الإمام — الشرعي — موجودا ويكون هذا الإمام إماما لأهل السنة ، متبعا لمذهبهم ملتزما به ، داعيا إليه ، محذراً من كل من يخالفه محاربا لأهل الأهواء والبدع .

وهو مثل عهد الخلفاء الراشدين — رضي الله عنهم — فقد اجتمع في عهدهم المعنيان الواردان في الجماعة ، اللذان رجحناهما : الجماعة الذين اجتمعوا على إمام ، والجماعة أي أهل السنة والجماعة .

وهذه أعلى الحالات ، وهي التي يتمنى كل مسلم — في هذا العصر — أن تتحقق في هذه الأمة ، وفي هذه الحالة يجب على كل مسلم أن يتبع الجماعة وأن يلزمها بأميرها وبما تدعو إليه .

الحالة الثانية :

أن يكون الإمام موجودا ، ولكن هذا الإمام مبتدع ، لا يلتزم مذهب أهل السنة والجماعة ، بل ربما يكون قد أشرب مذهب أهل البدع . ولكن يوجد في الأمة طائفة أو جماعة — أفراد متفرقين — أو تجمعات مختلفة المكان — لها صوت مسموع في الدعوة إلى مذهب أهل السنة وهي متمسكة به داعية إليه متحملة في سبيل ذلك ما تلاقيه من محن وابتلاء .

وهذا مثل عهد المأمون ، الذي أخذ مذهب المعتزلة وألزم الناس به وامتحنهم لأجله . فالمأمون كان إماما مبتدعا . ولكن وجد في عهده جماعة من أهل السنة رفضت البدعة والتزمت مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم تطع الخليفة فيما دعاها إليه من الاعتزال .

وفي هذه الحالة فالمسلم عليه واجبان :

١ — أن يلتزم الإمام بمعنى أن لا يخرج عليه ولو كان فاسقا — كما هو مذهب أهل السنة والجماعة — ، ولكن عليه أن لا يطيعه في معصية الله التي دعا إليها ، لأن الأمير تجب طاعته ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا طاعة .

٢ — أن يلتزم مذهب أهل السنة والجماعة ، وأن ينحاز إلى الجماعة التي تدعو إلى ذلك فيلزمها ويجاهد البدع كما يجاهدونها ، ويدعو إلى الحق كما يدعون إليه . ويدل على ذلك قول الرسول لحذيفة : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ».

الحالة الثالثة :

أن لا يكون هناك إمام شرعي ، لا عادلا ولا جائرا ، كما هي في بعض مراحل الضياع التي تمر بها الأمة الإسلامية ، ولكن مع ذلك توجد الجماعة التي هي أهل السنة والجماعة ، أفرادا أو جماعات .

فواجب المسلم في هذه الحالة أن يلتزم هذه الجماعة وأن يدعو إلى الله معها، وأن يعملوا جميعا على القيام بواجبهم في إقامة الدين، والدعوة إلى مذهب أهل السنة.

ويدل لهذا قول الرسول ﷺ : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قال : قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ... فمفهومه أنه إذا وجدت للمسلمين جماعة ، وليس لهم إمام شرعي فإنه يجب التزام هذه الجماعة .

الحالة الرابعة :

أن لا يوجد للمسلمين إمام ولا جماعة تدعو إلى مذهب أهل السنة ، وهذا قد يحدث أيام الفتن الكبرى ولبعض البلاد ، بحيث يصبح المسلم الملتزم بمذهب أهل السنة غريباً جداً، لايجد من يناصره، ولايجد من يأويه إلا أهل البدع.

ففي هذه الحالة فالمسلم واجب عليه أن يبحث عن تجمع يلتزم بمذهب أهل السنة ، فإن بحث ولم يجد فعليه أن يدعو إلى الحق وإلى إنشاء مثل هذا التجمع ، والسلف كانوا يدعون غيرهم في البلاد النائية إلى إقامة مذهب أهل السنة وتكوين جماعة : فروى ابن وضاح — عن غير واحد — (أن أسد ابن موسى[1] (المسمى أسد السنة) كتب إلى أسد بن الفرات[2]: (أعلم أي أخي أن ما حملني على الكتابة إليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من انصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السنة ، وعيبك لأهل البدعة ، وكثرة ذكرك لهم ، وطعنك عليهم ، فقمعهم الله بك وشد بك ظهر

١) هو أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الأمدي صاحب المسند يقال له أسد السنة ، قال النسائي : ثقة ، لو لم يصنف كان خيرا له (توفى سنة ٢١٢ هـ) . له كتاب الزهد في الظاهرية بدمشق رقم ١٠١ من كتب المجاميع (عن حاشية البدع) .

٢) أسد بن الفرات هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم بن قيس ، مولده سنة ١٤٥ هـ بحران من ديار بكر وتوفى سنة ٢١٣ هـ وقيل ٢١٤ هـ لما كان محاصرا سرقوسه وهو أمير الجيش وقاضيه ، ودفن بصقلية ، أخذ العلم عن علي بن زياد ، وسمع من الإمام مالك موطأه ، وكان ثقة .... (من حاشية البدع).

صحيح أن كثيرا من أفكار هذه الفرق قد تسربت إلى كيان الأمة المسلمة وأثرت في عقول وسلوك كثير من المسلمين ولكنهم لا يتبنون هذه الأفكار تبنيا عقائديا بل الغالب عليهم هو عدم الوعي بحقيقة هذه الأفكار ومدى مخالفتها للسنة أو اتفاقها معها وإنما هم يعيشون هذه الأفكار تقليدا للأسلاف أو الرؤساء دون تمحيص أو مراجعة بل تعصبا لهؤلاء الأسلاف أو الرؤساء فقط .

والعجيب أنك إذا أخذت بعض أفراد إحدى هذه الجماعات أو التجمعات — دع عنك أمر الرؤساء — لصدمت بحقيقة أخرى خطيرة وهي عدم تميز هؤلاء الأفراد عن أفراد الجماعة الأخرى سواء في الفكر أو في السلوك. بل إن غياب الملامح الفكرية الواضحة أو التميز السلوكي المحدد يجعل من الصعوبة على هؤلاء الأفراد أنفسهم أن يوضحوا لنا: لماذا العمل الاسلامي من خلال هذه الجماعة فقط ؟ ولماذا يرفضون أن يعمل غيرهم من خلال جماعة أو تجمع آخر ؟ وعلام يفاصلون أو يفارقون هذه الجماعات أو التجمعات الأخرى ؟ وما هو الدليل الشرعي أو القدوة العملية عند السلف على هذا الموقف ؟ ولماذا لا يسير الجميع — كلّ من خلال جماعته ومن موقعه الحالي — نحو الهدف المشترك المنشود يشد بعضهم بعضا بدلا من أن يقف الجميع في خطوط متشابكة يعرقل كل منها الآخر ؟ ويعوق تقدمه ؟ .

وفي ظل غياب الإجابات الواضحة — الشرعية أو العقلية — على هذه التساؤلات يفاجؤك موقف رؤساء أو زعماء بعض هذه الجماعات — أو التجمعات — لأنك إذا ناقشت أحدهم مناقشة علمية هادئة من أجل أن تتفهم حقيقة الخلافات القائمة بينهم وموقف كل منهم تجاه الآخر: تفاجأ بأن الجميع لا يوجد بينهم أية خلافات على ضرورة الالتزام بأصول أهل السنة والجماعة والجميع متفقون على نفس الأئمة والمراجع العلمية والجميع متفقون غالبا على نفس المقالات من حيث الحقائق والمعاني — وإن اختلفت الألفاظ والتعبيرات — والجميع متفقون على نفس الغايات والوسائل على الجملة وإن اختلفت الأساليب والأدوات .

فلماذا لا يترك كل منهم الآخر يسير في طريقه ويقف منه موقفا محايدا — على أقل تقدير — بدلا من أن يهاجم ويفاصل ويتهم — دون دليل من شرع أو أثارة

من علم أو عقل — وما الضرر على دين كل منهم إذا تعاون مع أخيه — كلّ بجماعته — فيما يستطيعون فيه أن يتعاونوا مع استقلال كل منهم بأسلوبه وأدواته وجماعته ؟.

إننا لا ننكر أن كل جماعة — أو تجمع — في الساحة الإسلامية لها إجتهادها الخاص في تقدير الواقع المحيط على الجملة. وفي تقدير أفضل الطرق والأساليب التي يمكن أن يبدأ منها الحل الإسلامي لمشكلات هذا الواقع، وأيضا لا ننكر ان الاختلاف في هذه الاجتهادات الخاصة لكل جماعة تصبغ حركة الجماعة بصبغة حركية خاصة — وليست فكرية أو سلوكية — بمعنى: أن الكل قد يكون متفقا على الإلتزام بفكر وسلوك أهل السنة والجماعة ابتداء ولكن أمام الاختلاف في تقدير مشكلات الواقع وتقدير طرق المواجهة يبدأ الاختلاف في أسلوب العمل: فهذه الجماعة تركز على جانب العقائد ونشرها بين المسلمين وهذه تركز على جانب التربية والإعداد وهذه تركز على العمل السياسي ونشر الوعي الحركي وهذه تركز على الدعوة للسنة ومحاربة البدع في السلوك والآداب وهذه تركز على نشر المفاهيم الإسلامية بين عامة الناس ودعوتهم للإلتزام بتعاليم الدين وهذه تركز على جانب الإعداد العسكري والمواجهة مع الباطل.. إلى آخر هذه الاجتهادات التي نرى أن الساحة الإسلامية في حاجة لها جميعا وتتسع لها جميعا بل إنها تكمل بعضها بعضا وتصب في النهاية في مصب واحد وهو إحياء الأمة المسلمة من سباتها العميق وتحريك هذا الجسد النائم ليفيق من غفوته ويفرز قيادته الحقيقية التي تقوده نحو ممارسة دوره المطلوب منه في هذه الحياة الدنيا بأمر الله .

كما إننا لا ننكر كذلك وجود ثغرات فكرية ومنهجية علمية وعملية لدى هذه الجماعات — أو التجمعات — ولا ننكر أيضا أن بعض هذه الجماعات يسعى مخلصاً لسد هذه الثغرات الفكرية واستكمال مناهجه العلمية والعملية ولكن وجود هذه الثغرات لايبرر أن تقف بعض هذه الجماعات موقفا معاديا تجاه الأخرى فتهاجم وتفاصل وتتهم — دون دليل من شرع أو أثارة من علم أو عقل — بل إن كل ثغرة فكرية أو منهجية عند إحدى هذه الجماعات يقابلها ثغرة أو ثغرات عند الجماعة الأخرى إن لم يكن نفس الثغرة الفكرية أو المنهجية. بل لعلنا لا نغالي إذا اعتبرنا أن أكثر هذه الجماعات — أو التجمعات — أشكال

أو تنويعات لنفس الجوهر أو الحقيقة الواحدة بكل إيجابياتها وسلبياتها. وإنما الفرق بينها لا يصنعه إلا المزاج الشخصي والميل النفسي والملكة الفردية التي تسير بصاحبها تجاه هذه الجماعة أو تلك — دع عنك العصبية الجاهلية والهوى الحزبي والميل والتعاطف الشخصي.

٧– إننا وبالمناقشة العلمية الهادئة مع أفراد وقيادات بعض هذه الجماعات — أو التجمعات — لنخرج بعدة حقائق تلخص الموقف الإجمالي العام لهذه الجماعات سواء مع نفسها أو مع غيرها نعرضها فيمايلي:

أ — غياب منهج علمي وعملي واضح المعالم ومتكامل يميز كلاً من هذه الجماعات عن بعضها البعض ويبرر تواجد أو تعدد كثير من هذه الجماعات.

ب — غياب استقراء علمي دقيق للواقع المحلي والعالمي في كافة المجالات يبرر تبني كل من هذه الجماعات لأسلوبها الذي يميزها عن غيرها.

ج — غياب دليل شرعي واضح أو دليل عقلي جلي يبرر عدم تعاون هذه الجماعات بعضها مع بعض في طريق الغاية الواحدة المشتركة بينها.

د — غياب أو قلة أو ضعف العلم الشرعي — أصولا وفروعا — لدى معظم هذه الجماعات على مستوى القيادات ولدى كل الجماعات على مستوى القواعد والأفراد.

هـ — غياب أية فروق حقيقية بين فكر وسلوك أفراد هذه الجماعات أمام القضايا الأساسية التي تشكل الإطار العام الذي يميز أهل السنة عن غيرهم.

إن المرء قد يتساءل أمام هذه الحقائق: إذا كان الأمر كذلك فما هو المبرر الحقيقي لوجود مخاصمة بين كثير من هذه الجماعات التي ترفع كلها شعار السنة والجماعة؟ وإذا كانت الاختلافات في العقول وتعدد الاجتهادات قد تبرر تعدد الطرق والأساليب التي تتبناها هذه الجماعات فما الذي يبرر عدم تعاون هذه الجماعات نحو الغاية الواحدة المشتركة والهدف المنشود — مع احتفاظ كل من هذه الجماعات بشكلها الحالي — داخل إطار الجماعة الأم وهي جماعة أهل السنة بمعناها الشرعي الشامل الذي يستوعب ويقبل بل ويقر تعدد الاجتهادات ووجهات النظر في الحدود المعتبرة شرعا؟

إن غياب الفقه الشرعي العميق المتكامل لحقيقة منهج أهل السنة والجماعة. وغياب الإطار الأخلاقي والسلوكي الذي تميز به دائما أئمة السنة وسلفنا الصالح هو الذي يبرر لنا هذا الواقع الغريب الذي تعيشه هذه الجماعات التي ترفع شعار أهل السنة والجماعة.

إن (الجماعة) وكما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية: سبب ونتيجة في نفس الوقت: فالحرص على الاجتماع والائتلاف والموالاة العامة لكل المسلمين على أساس التقوى ومحبة الخير للآخرين والحرص على هدايتهم وإخلاص النصح لهم بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر عليهم في كل حال: كل ذلك سبب لتنزل رحمة الله على الناس وإسباغ نعمه عليهم. ومن رحمة الله على الناس ونعمه عليهم المحافظة على اجتماعهم وائتلافهم وموالاة بعضهم بعضا.

إن النظرة الحزبية الضيقة التي تسيطر على معظم الجماعات الإسلامية والتعصب المقيت للأسماء والأشخاص واعتقاد كل طائفة أنها تملك الحق وحدها وأن غيرها ليس على شيء، وتقديم المزاج الشخصي والهوى النفسي على الحكم الشرعي والانضباط الفقهي وتغليب مصلحة الجماعة على المصالح الشرعية للمسلمين ككل ومصادرة حق الغير في التفكير والاجتهاد المخالف داخل اطار أهل السنة والجماعة. أضف إلى ذلك غياب القدوة العلمية والسلوكية والأخلاقية التي كان يمثلها أئمة أهل السنة الأعلام في كل عصر وجيل كل ذلك كان محصلته هو مانراه الآن من واقع ممزق واضطراب وتخبط في مناهج وسلوك كثير من هذه الجماعات.

إن الفكرة السائدة بين كثير من هذه الجماعات: وهي اعتقاد كل منها أنها هي وحدها جماعة أهل السنة والفرقة الناجية والطائفة المنصورة. وأنها هي وحدها المسئولة عن هذا الدين وأنها هي وحدها القادرة على فعل كل شيء والوقوف على جميع الثغور واجتياز كل المراحل وخوض كل المعارك والبدء دائما من نقطة الصفر وحتى تقيم الخلافة وتتسلم بنفسها مقاليد الأمور ومفاتح الإدارة!!!

نقول إنها لفكرة غريبة عن هذا الدين ولا تتفق مع واقعية وتاريخ هذا الدين. ودليل على عدم فهم حقيقة منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع واقع الأمور وحقائق الأشياء.

لقد اختلف السلف والأئمة وتعددت اجتهاداتهم في كثير من القضايا العلمية والعملية ونتج عن ذلك تعدد التيارات الفكرية والحركية وسقوط البعض في أخطاء اجتهادية أو

تأويلات بعيدة ولكن الإخلاص في النية لله وحده والصدق في القول والعمل والالتزام بالعلم الشرعي والخلق النبوي جعلهم يحرصون خلال ذلك كله على وحدة الكلمة والمحافظة على الجماعة والأدب في الحوار أو النقد والصبر على المخالف مهما كان خطؤه والدعاء له بالهداية والخير، مع التزام كل منهم بما يراه حقا وصوابا والدعوة إليه ذلك أنهم كانوا يعون هذه الحقيقة جيدا: إن التعاون فيما بينهم والمحافظة على جماعتهم الشاملة وائتلافهم ووحدة كلمتهم والوقوف صفا واحدا أمام عدوهم المشترك هو حياتهم ونصرهم ورحمة ربهم بهم .

إن اختلاف العقليات وتعدد القدرات وتنوع الملكات حقيقة واقعة وسنة كونية وشرعية مقررة يجب قبولها واستيعابها وتفهمها بصدر رحب وعقل مفتوح طالما كان الالتزام أصلا بالثوابت الشرعية عند أهل السنة وقوامها رد الأمر عند التنازع إلى الكتاب والسنة وفقه السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الأعلام. فما وسعهم فيه الخلاف فكيف لا يسعنا؟ وهل نحن أعلم بدين الله وأحرص عليه منهم؟

إن تعصب كثير من هذه الجماعات المعاصرة لأسماء وشعارات ما أنزل الله بها من سلطان، والمفاصلة وتحديد الولاء على أساس الإنتماء للأشخاص واللافتات — وليس على أساس التقوى والعمل الصالح والولاء العام لجميع المسلمين — مع عدم تلقي الحق والخضوع له من مصادره الشرعية وإنما من نظرة حزبية ضيقة ورؤية القيادة أو مزاجها هو الذي يجمد العقل والسلوك كل عند حدود جماعته، وهو الذي يصنع تلك الحدود الموهومة التي تحيط بها كل جماعة نفسها والتي تصور لأفرادها في النهاية أنها هي وحدها الحق وكل ماعداها باطل أو خطأ أو انحراف .

إن العمل الجماعي المنظم واجب شرعي ومطلب عقلي وواقعي سواء للمسلمين أم لغيرهم فهذه سنة من سنن الله في خلقه فالإنجازات المطلوبة من الجماعة لا يقوم بها فرد أو أفراد متفرقون. ولكن الجماعة أيضا لا يمكن أن تنجز ماهو مطلوب منها إلا إذا استغلت إمكانيات وقدرات ومواهب وملكات أفرادها على تنوعها وتباينها استغلالا علميا منظما تستثمر به أفضل مايمكن أن يأتيه كل منهم في تناسق وتوازن تحقق به المصلحة الشرعية العامة للجماعة وليس مصلحة فرد منها .

وكذلك لا يمكن أن تنجح الجماعة إلا إذا كان أفرادها — وقادتها أولا — مقتنعين بتلك السنن وأن الفرد — كفرد — مهما كانت إمكانياته وقدراته ومواهبه وملكاته لا يمكن أن يناطح سنن الله فيحقق بمفرده ماهو مطلوب من جماعة بكاملها بل عليه أن يسخر كل مايملك في مصلحة الجماعة دون خلل في التنسيق بين عمل الفرد وعمل الجماعة ككل. وكل جماعة من الجماعات الإسلامية هي في النهاية كفرد واحد تشكل مع غيرها من الجماعات الأخرى الجماعة الأم بمعناها الواسع والشامل عند أهل السنة بغض النظر عن الحصار الوهمي الذي تفرضه بعضها على نفسها أو يفرضه عليها الآخرون وبغض النظر عن الحدود الاقليمية المصطنعة التي تقسم جسد الأمة المسلمة إلى دويلات وعصبيات وولاءات محدودة بالمكان كالمدينة والإقليم والدولة، أو الزعامة أو الطائفة أو الحزب أو غير ذلك من اللافتات أو الشعارات التي لا تزن مثقال ذرة في ميزان الحق عز وجل .

إن العمل للإسلام من خلال هذه الجماعات أمر لا غبار عليه لا شرعا ولا عقلا، وتسخير جهد كل فرد لخدمة هذا الدين من خلال تجميع منظم ومتناسق مع جهد الآخرين أمر وواجب شرعي مطلوب بداهة ولا مفر منه بغض النظر عن الشكل الذي يتحقق ذلك من خلاله، والالتزام بالعهود والمواثيق والعقود الشرعية لتحقيق إنجاز واضح ومهمة محددة ومتفق عليها سلفا أمر مشروع وواجب معروف ولكن الخطأ والانحراف عن منهج أهل السنة والجماعة أن يقدم الولاء للجماعة الصغيرة على الولاء للجماعة الكبيرة*.

وأن تقدم المصلحة المتوهمة للجماعة الصغيرة على المصلحة الشرعية الحقيقية للجماعة الكبيرة وأن يضحى بالمهمة المطلقة والواجب الأكبر في سبيل تحقيق المصلحة المرجوحة. ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه) .

وبعد هذه النظرة إلى واقع التجمعات الإسلامية، فإن هناك حقيقة لا نحسب أنها تغيب عن ذهن القارىء الواعي بأمر هذا الدين وإن كنا نخشى أن تكون قد تاهت — أو توارت — أثناء الصراع الدائر بين أهل السنة والجماعة والفرق المختلفة الضالة التي تنتسب لهذا الدين .

* أي جماعة أهل السنة بمعناها العام والشامل .

إن أحد التحديات الخطيرة — إن لم تكن أخطر هذه التحديات على الإطلاق — والتي تواجه أهل السنة والجماعة في هذا العصر، لهي إسقاط اللافتات الزائفة وكشف المقولات الغامضة وفضح الشعارات الملبسة التي تتخفى وراءها العلمانية الكافرة — بأفكارها وأفرادها وتجمعاتها — لتبث سمومها في عقول وقلوب أبناء هذه الأمة .

ولفضح العلمانية ومواجهتها، لابد أولاً أن يصل أمر المواجهة إلى المستوى المطلوب من الحسم والوضوح في نفوس أهل السنة أنفسهم. فإنه بدون هذا الحسم وبدون هذا الوضوح تعجز تجمعات أهل السنة — ويعجز علماؤها ومفكروها — عن أداء واجبها في هذه الفترة الحرجة وتتأرجح هي أمام التجمعات الجاهلية — ومنها العلمانية — حيث تحسبها تجمعات ليست بكافرة، وبالتالي تفقد تجمعات أهل السنة تحديد أهدافها الحقيقية وذلك بفقدانها لتحديد نقطة البدء في مواجهة هذه التجمعات الجاهلية من حيث تقف هذه التجمعات الجاهلية فعلاً، لا من حيث تزعم، والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع... بعيدة جداً .

ونظراً لما أصاب كثيراً من التصورات الإسلامية من إنحراف وغبش في أذهان الناس في هذا العصر، ولما يثيره أعداء الإسلام — الظاهرون منهم والمتسترون — من شبهات وأباطيل، فإن من الضروري أن يقوم أهل السنة والجماعة بتجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبهات وفضح حقيقة العلمانية الكافرة وبيان أن التوحيد الذي هو أعظم حقيقة في التصور الإسلامي — بل في الوجود كله — هو في الوقت ذاته أكبر نقيض للعلمانية. ومن ثم كان لابد من معرفته حق المعرفة والتأكيد عليه في جميع مراحل الدعوة إلى الله مع بيان سبيل إحياء الأمة في التمسك واتباع مناهج وأصول أهل السنة والجماعة.

وإذا كان معنى «لا إله إلا الله» الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وخير تعريف للطاغوت ماذكره الإمام ابن القيم — رحمه الله —: [الطاغوت كل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله] .

وإنطلاقاً من هذا المفهوم — الذي يعتبر في حقيقة الأمر من المعلوم من الدين بالضرورة عند أهل السنة والجماعة — نستطيع أن نرى حكم الإسلام في العلمانية بوضوح وسهولة، ونستطيع أن نصل بالقضية إلى المستوى المطلوب من الحسم والوضوح في نفوس أهل السنة واللازمين لفضح العلمانية ومواجهتها .

إن العلمانية — بإختصار — نظام طاغوتي جاهلي كافر يتنافى ويتعارض تماما مع شهادة «لا إله إلا الله» سواء على مستوى الجماعات أو الأفراد الذين يتبنون هذا المنهج .

إن العلمانية تعني — بداهة — الحكم بغير ما أنزل الله وتحكيم غير شريعة الله وقبول الحكم والتشريع والطاعة والاتباع من طواغيت أخرى من دون الله فهذا معنى قيام الحياة على غير الدين، ومن ثم فهي — بالبديهة أيضا — نظام جاهلي لا مكان لمعتقده ولا لنظامه ولا لشرائعه في دائرة الإسلام بل هو كافر بنص القرآن الكريم ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

فهل يبقى بعد هذا مجال للشك أو التردد في الحسم والوضوح اللازمين في نفوس أهل السنة اليوم تجاه العلمانية؟ .

الحق أنه لا مجال لشيء من ذلك، ولكن الغياب المذهل لحقائق الإسلام من العقول والقلوب والغبش الكثيف الذي انتجته الأفكار المنحرفة هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيرا من الناس يثيرون شبهات متهافته لم تكن لتستحق أدنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم. فمن هذه الشبهات استصعاب بعض الناس إطلاق لفظ الكفر أو الجاهلية على من أطلقهما الله تعالى عليه من الأنظمة والأوضاع والأفراد بذريعة أن هذه الأنظمة — لاسيما العلمانية الديمقراطية — لا تنكر وجود الله، وبذريعة أن هذه الأنظمة العلمانية الديمقراطية لا تمانع في إقامة شعائر التعبد، وبحجة أن بعض أفراد الأنظمة العلمانية الديمقراطية يتلفظون بالشهادة ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام وحج وصدقة ويحترمون من يسمونهم برجال الدين(!) ويحترمون المؤسسات الدينية... إلخ. وفي ظل هذه الشبهات المتهافته المردودة يستصعب بعض الناس — ومنهم للأسف الشديد بعض من يرفع راية الدعوة الإسلامية اليوم — القول بأن الأنظمة العلمانية الديمقراطية أنظمة كافرة جاهلية وأن المؤمنين بها المتبعين لها جاهليون؟ ومن الواضح جداً أن الذين يلوكون هذه الشبهات لا يعرفون معنى لا إله إلا الله ولا مدلول «الإسلام» بل لقد جاء دعاة العلمانية — بعد التفكير والتدبير — إلى ماهو أخبث وأخطر: لجأوا إلى اصطناع أنظمة تحكم بغير ما أنزل الله وفي الوقت نفسه هي تدعي الإسلام وتظهر احترام العقيدة فقتلوا إحساس الجماهير وضمنوا ولاءها وخدروا ضميرها ثم انطلقوا يهدمون شريعة الله في مأمن من انتفاضتها. ولذلك لا يجرؤ أرباب هذه الأنظمة العلمانية الديمقراطية على التصريح بأنهم ملحدون أو لا دينيون أو أنهم ضد شريعة الله بينما يصرحون — مفتخرين — بأنهم

ديمقراطيون مثلاً! وتبلورت مقالات العلمانيين وأفكارهم التي تعبر في جوهرها عن حقيقة الجاهلية ولكنها وبخبث شديد وتدبير محكم تحاول أن تتنسب إلى الدين بتبجح غريب ومكر وضيع، وذلك حتى لا ينفر من هذه الأفكار جمهور المسلمين فهم يريدون أن تسري العلمانية ببطء في عقول ونفوس جمهور المسلمين سريان السم البطيء الذي يودي بحياة صاحبه دون أن ينتبه له جسده .

أليس هذا هو بعينه مايريده رافعو شعار (الدين لله والوطن للجميع) وشعار (لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) من أدعياء الإسلام من العلمانيين أو غيرهم. إن من عادة المنافقين والزنادقة ــ من المنتسبين لهذا الدين ــ عدم الإنكار الصريح والواضح وعدم إظهار العداء السافر للإسلام وهم يسعون بسلاح التلبيس والتمويه للإلتفاف حول المسلمين لحين المعركة الفاصلة حتى يفاجئوا المسلمين على حين غرة، من أجل ذلك يرفع هؤلاء الزنادقة من العلمانيين وأشباههم شعارات يحاولون بها خداع أكبر عدد ممكن من المسلمين وتهدئة نفوس القلة التي قد ساورتها الشكوك تجاه نوايا هؤلاء الذين يرفعون شعارات العلمانية بينما يسعون بواقعهم العملي لاقتلاع الإسلام من جذوره ولكن رويداً رويداً!!.

فارتفعت لذلك شعارات (المدرسة العقلانية) وشعار (حكم الشعب بالشعب) وشعار (الحرية الشخصية) وشعار (الأمة مصدر السلطات) وشعار (حرية الثقافة والفكر) وحاول البعض منهم تهدئة بعض مشاعر الإسلاميين فرفعوا شعار (تطوير الشريعة) و(مرونة الشريعة لتلبية حاجات العصر) وشعار (تقنين الشريعة)، وبعد أن نفد صبر بعضهم أعلنوها صريحة ورفعوا شعار (فصل الدين عن الدولة) و(لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين) و(الدين لله والوطن للجميع) و(دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله). أوليس هذا أيضا مايطبقه الذين يجعلون للدين برامج تسمى برامج «روحية» ضمن أجهزة الإعلام الشيطانية، والذين يجعلون أحكاما للأحوال الشخصية ضمن قوانين الحكم الجاهلية، والذين يجعلون في كل صحفهم ومجلاتهم العلمانية الجاهلية صفحة يسمونها صفحة الفكر الديني!. ويقولون إن مكان الدين هو المسجد فقط ويظهرون لعامة المسلمين أنهم يحجون لبيت الله في العمر مرة ويتعمدون إبرازها في أجهزة إعلامهم بينما هم يقصدون بيوت أعداء الله شرقا وغربا كل حين يتلقفون منهم المناهج ويتلقون التشريعات والأوامر والنواهي والحلال والحرام!!.

إن العلمانية التي ولدت وترعرعت في أحضان الجاهلية لهي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة ولا إلتباس، ولكن الخفاء والمداورة والإلتباس إنما يحدث عمداً من دعاة العلمانية أنفسهم، لأنهم يعلمون أن لا حياة ولا إمتداد لجاهليتهم في بلاد المسلمين إلا من خلال هذا التخفي والمداورة والتلبيس على جماهير المسلمين وذلك من خلال راياتهم الزائفة التي تخفي حقيقة أمرهم وباطن دعوتهم عن المسلمين وتلبس على العامة أمر دينهم وعقيدتهم بل وتحفزهم ضد إخوانهم الصادقين الواعين بحقيقة هذا الصراع المنبهين إلى خطره الداهم على الدين وأهله .

إن المعارك والجبهات التي تفتحها الفرق الضالة والمنتسبة لهذا الدين ضد أهل السنة والجماعة ــ وأخطرها دائما جبهة الرافضة الباطنية ــ والتي تغذيها وتدعمها القوى والمعسكرات الجاهلية العالمية لتدمير أهل السنة والجماعة ــ بإعتبارهم الخطر الحقيقي والفعال ضد هذه القوى ــ أقول إن هذه المعارك وهذه الجبهات يجب أن لا ينسى معها أهل السنة والجماعة أن حصونهم لازالت مهددة من داخلها، وأن القوى العلمانية المتكتلة ضدهم من الداخل والتي تصارعهم في معارك خافية ــ غالباً ــ وسافرة ــ أحياناً ــ هي التي تمثل الآن جوهر الصراع القائم بين الإسلام والجاهلية في العصر الحديث. وأن أخطر مراحل هذا الصراع هي مرحلة تعرية هذه القوى العلمانية القبيحة وفضحها أمام المسلمين ليستبين لهم سبيل المجرمين الذين يحاولون خداعهم وتلبيس أمر دينهم عليهم وهم لا يعلمون .

أما آن لأهل السنة والجماعة أن يتنبهوا لهذه الأخطار الماحقة في الداخل والخارج والتي تهددهم في دنياهم وآخرتهم؟ أما آن لهم أن يتكتلوا هم أيضاً دفاعاً ــ أولاً ــ عن وجودهم وعقيدتهم ــ ثم هجوماً ــ ثانياً ــ ضد تجمعات الجاهلية الشرسة . أما آن لهم ــ أو لكثير منهم ــ أن يتخلوا عن معاركهم الوهمية وخلافاتهم الجانبية الشكلية. وليفرغوا طاقاتهم ويركزوا جهودهم المشتركة ــ المادية والمعنوية ــ لمواجهة هذه التحديات التاريخية والمعارك الفاصلة الحقيقية والجذرية؟ أما آن لهم هذا؟ **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق﴾** .

نسأل الله الهدى والرشاد، فمنه وحده التوفيق والسداد وهو على كل شيء قدير.

الخاتمة

وأخيرا .. وفي ختام هذا البحث يواجهنا التساؤل الذي لا مفر منه والذي نعتقد أنه قفز ولاشك إلى ذهن القارىء ، التساؤل الذي يراود كل المسلمين الصادقين الذين يعيشون الواقع الإسلامي في السنوات الأولى للقرن الخامس عشر الهجري ويتطلعون إلى ميلاد فجر صادق وبدء مرحلة جديدة وانطلاقة حقيقية تجاه الهدف الإسلامي الكبير . التساؤل الذي يقول : وما العمل إذن ؟ ومن أين نبدأ ؟ وماهي الخطوة الأولى ونقطة الانطلاق في الطريق الصحيح نحو الهدف المنشود ؟

إن تحديد الطريق الصحيح يجب أن يسبقه بداهة تحديد الغاية المقصود الوصول إليها بسلوك هذا الطريق . وتحديد الغاية يصاحبه أو يسبقه تشخيص للمفسدة المطلوب درؤها أو المصلحة المطلوب تحصيلها من وراء بلوغ هذه الغاية . تماما كما يحدد الطبيب الداء ويقرر الهدف من العلاج ثم يختار الدواء الذي يحقق هذا الهدف وطريقة استخدام هذا الدواء .

إن عدم وضوح هذه النقاط جيدا في الذهن وعدم ترجمتها إلى منهج واضح المعالم ، يتسبب دائما في اضطراب التصورات وتداخل الأهداف بالوسائل واختلاط المراحل ونسيان الغاية الأهم في سبيل تحقيق مصالح جزئية ضيقة أو الانسياق وراء أهداف مرحلية بعيدة عن المسار الأصلي نحو الأهداف النهائية الكبرى المرجوة .

وأيضا فإن تشخيص الداء وتقرير العلاج يجب أن يصاحبه أو يسبقه دراسة نظرية جيدة ثم فحص عملي دقيق يربط الظواهر بأسبابها الحقيقية ويرد التصرفات إلى بواعثها الكامنة ويرجع الخلل إلى علته الأولى .

نقطة البدء إذن والخطوة الأولى في طريق الجهاد المبارك والتي يجب أن تسبق أي اختيار : هي الصبر على العلم : الصبر على العلم النظري وتراث وخبرات السابقين من أهل الذكر والخبرة .

والصبر على العلم بالواقع والفحص الدقيق لاستقراء المناط الحقيقي ليتنزل عليه حكمه الصحيح والاستعانة في ذلك بأصحاب التخصص وأهل الخبرة واستخدام المقاييس والمعلومات المنضبطة كل في مجاله .

وأخيرا الصبر على نتائج ذلك كله — أيا كانت — وإخضاع هوى النفس لحكم الحق وحده ، وليس المسارعة إلى النتائج ثم البحث عن المقدمات الملائمة لها فإن هذا النوع من الصبر هو المحك الحقيقي لإخلاص النفس لله وحده والصدق في المخبر والمظهر وعدم التقديم بين يدي الله ورسوله .

إن المسلم الصادق مع ربه ومع نفسه عليه — وقبل أن يقدم على أي اختيار لهذا الطريق أو ذاك — أن يحدد موقفه تماما أمام هذه القضايا سواء النظري منها أو العملي وعليه أن يقرر بدقة — سيحاسب عليها أمام ربه — مبلغه من العلم الذي يؤهله أن يتخذ قرارا ينبني عليه اعتقاد أو عمل سيوضع في ميزانه أمام الله يوم الموقف الأكبر وستؤخذ نتائجه له أو عليه وسيحمل على ظهره حسنات أو سيئات من اتبعه على هذا القرار .

إن الله فرض أمر الشورى على هذه الأمة — أمرائها ومجتهديها وعلمائها وأئمتها قبل عامتها — لأنه يعلم عز وجل أن العلم والحق ليس حكرا على إنسان بعينه أو إمام أو مجتهد بمفرده وأن ماعند هذا من العلم ليس عند ذاك وأن مايفتقده واحد يجده عند الآخر وأن نسبة الخطأ في اتخاذ القرار تقل بنسبة زيادة العلماء والمتخصصين العاكفين على دارسته . فإذا كانت الشورى واجبة على أمراء هذه الأمة وعلمائها ومجتهديها من أهل الحل والعقد ، فكيف بعامتها وجمهورها ممن هم ليسوا أهلا للإجتهاد أو الفتوى سواء في الأمور العلمية أو في الاستقراءات الواقعية أو في المجالات التخصصية .

المسلم مطالب إذن أن يعلم أولاً الأصول الثابتة والإطار الوحيد الذي لا يملك إنسان — يبتغي النجاة في الدنيا والآخرة — أن يخرج عليه وهو: القرآن والسنة وفقه السلف الصالح رضي الله عنهم ومايؤدي إليه هذا الإطار من مقاصد عامة للشريعة ومصالح معتبرة يدور حولها الاجتهاد في أمور الدين والدنيا. وعليه أن يعلم ثانياً الواقع المحيط علما

استقرائيا دقيقا يمكن معه أن يصيب الحكم الشرعي الصحيح المطالب به إزاء هذا الواقع اعتقادا وعملا مبنيا على هذا الاعتقاد .

والمسلم الصادق مع ربه ومع نفسه عليه خلال بحثه الدائم والمستمر عن العلم النظري والعلم بالواقع أن يرجع إلى أهل الذكر وأصحاب التخصص قبل أن يتبنى حكما أو يتخذ قرارا فهو مسئول عن ذلك أمام ربه عز وجل . فإذا غاب الإمام فهناك أهل الحل والعقد ، وإذا غاب هؤلاء فهناك العلماء المجتهدون ، فإذا غاب هؤلاء فأهل العلم المتخصصون كل في مجاله ، فإذا تعذر فأعلم أهل الزمان أو المكان ، وهكذا الأعلم فالأعلم في جماعة السنة الشاملة وكلما وسع المسلم دائرة الشورى والرجوع إلى الغير ممن هم أهل للثقة علما وعملا — ويعلم هذا بالمباشرة أو بالاستفاضة — كلما رفع الإثم عن نفسه أولاً أمام ربه وكلما اقترب هو من الصواب في قراره وكلما تقارب المسلمون أيضاً وتجانست حركتهم واندفعت بقوة في اتجاهها الصحيح بفضل الله ومنه وكرمه .

إن الفتنة الكبرى التي ابتلى بها هذا العصر — وهي فتنة إبعاد شرع الله عن الحكم في الأرض — لم تنجح ولن تنجح بإذن الله في القضاء على جماعة الحق والفرقة الناجية والطائفة المنصورة بمشيئة الله . وإن كانت الإمامة الكبرى قد غابت عن هذه الجماعة فترة من الزمان فإن مسئولية الجماعة الأولى أصبحت — بعد الحفاظ على كيانها وائتلافها وتكتلها — أن تدفع بالأحداث في اتجاه القضاء على هذه الفتنة الأولى — التي يتفرع عنها كل الفتن بعد ذلك — وفي اتجاه إفراز القيادة الحقيقية القادرة علما وعملا على قيادة هذه الجماعة إلى المقدمة مرة أخرى وإعادة شرع الله ليحكم حياة الناس في ظل الخلافة الإسلامية .

إن الاعتقاد السائد عند كثير من المسلمين — بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال — أن مجرد الإنتماء لهذه الجماعة — جماعة أهل السنة — بالإلتزام بعقائدها كفيل بتحقيق نصر الله ثم الاستنامة على هذا الاعتقاد انتظاراً لنصر الله لهو ضربة في صميم اعتقاد أهل السنة وعقبة كؤود في الطريق إلى نصر الله .

إن الخلل في فهم قضية القدر — كما فهمها سلف الأمة وأئمتها — والخلط بين ماأراده الله بنا وما أراده منا والركام الثقيل من عقائد الجبرية — التي تربى عليها أجيال وأجيال

من هذه الأمة دون وعي أو إدراك — والذي تسرب بدرجاته المختلفة في فكر وسلوك كثير من المسلمين هو المبرر الحقيقي والعلة الخفية لهذا الإعتقاد .

إن سلف الأمة وأئمتها قد استوعبوا هذه القضية استيعابا حقيقيا واكتشفوا بفضل الله ومنه وكرمه سنن الله الكونية الصارمة والتي لا تحابي فردا على حساب آخر ولا جماعة على حساب أخرى . وأن ارتباط النتائج بمقدماتها والمعلولات بعللها والمسببات بأسبابها سنة كونية مطردة لا تتوقف — بأمر الله — إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أن النتائج التي يتطلع إليها على وجه هذه الأرض أكثر المؤمنين إيمانا وأشدهم ورعا وتقوى سوف يجنيها أكثر الكافرين كفرا وأشدهم فسقا وفجورا ، إذا اتخذ المقدمات الصحيحة المؤدية إليها ، بينما ينتظرها المؤمن ارتكازا على إيمانه وحده واعتمادا على ورعه وتقواه دون أن يطلبها من مقدماتها التي خلقها الله عز وجل طريقا إليها . فأنى يستجاب له ؟!

إن انطلاق أهل السنة والجماعة لاستيعاب لغة العصر وعلومه وثقافته وامتلاك أسباب القوة المادية في جميع مجالات العلوم مازال فريضة شرعية غائبة قبل أن يكون واجبا عقليا أو حتمية تاريخية . وعلى أهل السنة — قبل غيرهم — أن يتوافقوا مع سنن الله الكونية ويرضخوا لها بدلا من مناطحتها وإهدار طاقتهم ووقتهم .

إن إحياء الأمة من سباتها العميق والدفع بها إلى مكانها الطبيعي في مقدمة الركب لتقود البشرية مرة أخرى بأمر من الله لن يتحقق من خلال جهود أفراد أو تجمعات صغيرة أو كبيرة يغلق كل منها بابه على نفسه ويحيطها بسياج من الأوهام التي تخدر الناس بدعوى : (إننا على الحق وغيرنا على الباطل ونصر الله لنا آت . لأننا على الحق وغيرنا على الباطل) !!

إن الأمر أجل من هذا والخطر أشد وأدهى من مثل هذه التصورات التي لا توافق شرعا صحيحا ولا عقلا صريحا . وإن الأمر يحتاج إلى جهود كل هذه التجمعات والجماعات والأفراد المخلصين لهذا الدين .

إن الحق ليس حكرا على أحد دون أحد أو جماعة دون أخرى — طالما أن الكل يلتزم بالإطار العام لأهل السنة والجماعة — وكل من يرى من أحد خطأ فعليه أن يهديه ويرشده وينصحه ما أمكنه ذلك لا أن يسفهه ويؤذيه وإلا فلا يكلف الله نفسا

إلا وسعها . والمطلوب من كل فرد مسلم يرى ثغرا يمكن أن يؤتى هذا الدين من قبله فليقف عليه إن كان كفؤا له أو فليدْعُ غيره وينبه إليه وعليه في الوقت نفسه أن يدَعَ غيره يؤدي ماهو مقتنع به ليسد ثغرا آخر يقف عليه كل حسب قدراته وكفاءته وقناعته الشخصية التي يدين الله بها يوم الحساب . وأقل المطلوب أن يحترم كل واحد جهود الآخرين ولا يسفهها أو يزدري بها . وأكثر من هذا أن يوجه الآخرين لما يراه صوابا بالحكمة والموعظة الحسنة ويصبر عليهم . وأكثر من هذا أن يشاور غيره ويحترم رأيه — طالما هو أهل لهذا — مهما كان الاختلاف في وجهات النظر أو أسلوب العمل . وأكثر من هذا أن يتعاون كل مع الآخر في المجال الذي يفيد فيه أو يستفيد منه وينسق عمله حتى تصب كل الجهود في محصلة موجهة نحو الهدف المشترك . ومنتهى المطلوب أن يتفاعل الجميع داخل جسد واحد — مهما تميز كل بشخصيته — ليفرز هذا الجسد في النهاية رأسا واحدا يقود هذا الكيان في طريقه الصحيح فضلا من الله ونعمة .

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم .
- تفسير القرآن العظيم (لابن كثير) .
- مختصر تفسير ابن كثير (للصابوني) .
- فتح الباري (لابن حجر) .
- شرح صحيح مسلم (للنووي) .
- شرح السنة (للبغوي) .
- المستدرك (للحاكم) .
- المسند (للإمام أحمد) .
- سنن الترمذي .
- سنن أبي داود .
- سنن ابن ماجه .
- سنن النسائي .
- سنن الدارمي .
- معاجم الطبراني .
- السنة (للالكائي) .
- السنة (لابن أبي عاصم) .
- مجمع الزوائد (للهيثمي) .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة (للألباني) .
- جامع العلوم والحكم (لابن رجب) .
- النهاية (لابن الأثير) .

- تدريب الراوي (للسيوطي) .
- شرح علل الترمذي (لابن رجب) .
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (لمصطفى السباعي) .
- لسان العرب (لابن منظور) .
- معارج القبول (لحافظ حكمي) .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل (لابن حزم) .
- شرح العقيدة الطحاوية (لابن أبي العز) .
- شرح العقيدة الواسطية (لمحمد خليل هراس) .
- مختصر لوامع الأنوار البهية (لمحمد بن سلوم) .
- عقيدة السلف أصحاب الحديث (للصابوني) .
- المفسرون بين التأويل والإثبات (للمغراوي) .
- الموافقات (للشاطبي) .
- الإعتصام (للشاطبي) .
- إرشاد الفحول (للشوكاني) .
- الإنتقاء (لابن عبدالبر) .
- الباعث (لأبي شامة) .
- البدع والنهي عنها (لابن وضاح) .
- شفاء العليل (لابن القيم) .
- التبيان (لابن القيم) .
- مختصر الصواعق المرسلة (لابن القيم) .
- منهاج السنة (لابن تيمية) .
- المنتقى (لابن تيمية) .
- قاعدة جليلة (لابن تيمية) .
- العبودية (لابن تيمية) .
- مجموع الفتاوى الكبرى (لابن تيمية) .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام (لابن تيمية) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة : الغرض من البحث وأهميته ومنهجه	٧
الباب الأول	
الفصل الأول : تاريخ إنحراف الخلق عن الحق .	
الأمانة التي حملها الإنسان	١٧
خلافة الإنسان في الأرض وشروطها	١٨
ميثاق الفطرة	١٨
من رحمة الله أن لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة الرسالية	١٩
فساد الفطرة	٢١
خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ	٢٥
أمر الله المسلمين بالجماعة ونهاهم عن الفرقة	٢٧
افتراق الأمة إلى ملل كلها في النار إلا واحدة	٢٧
راية السنة ظاهرة متميزة في كل عصر وجيل	٢٩
فضل صحابة رسول الله الكرام	٣٠
الصحابة الكرام أخذوا عن رسول الله ﷺ القرآن والسنة لفظاً ومعنى	٣٢
أحاديث الافتراق والطائفة التي على الحق ووجوب لزوم الجماعة	٣٤
روايات وطرق حديث الافتراق	٣٤
حديث لاتزال طائفة من أمتي على الحق	٣٦

الموضوع — الصفحة

الأحاديث الدالة على وجوب لزوم الجماعة واتباع السنة ٣٩
حديث حذيفة رضي الله عنه ٤٠

الفصل الثاني : تعريفات ضرورية .

أولاً : تعريف السنة ٤٣
ثانياً : تعريف الجماعة ٤٥
ثالثاً : تعريف أهل الحديث ٤٩
رابعاً : تعريف السلف ٥١
خامساً: تعريف الطائفة المنصورة ٥٢
ضرورة التمييز بين الأمر الشرعي والأمر الكوني ٥٦

الفصل الثالث : نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

كيف نشأت التسمية ٥٧
كيف بدأت الفتنة ٥٨

الباب الثاني

الفصل الأول : منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة .

كل ما وافق الكتاب والسنة أثبتوه وما خالفهما أبطلوه ٦٥
لا معصوم عندهم إلا رسول الله ﷺ ٦٦
إجماع السلف الصالح عندهم حجة شرعية ملزمة لمن بعدهم ٦٦
لا يقرون قولاً ولا يقبلون اجتهاداً إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة والإجماع ٦٦
لا يعارضون القرآن والسنة بعقل أو رأي أو قياس ٦٧
الجماعة عندهم هي مناط النجاة في الدنيا والآخرة ٦٨
لا يوجبون على العاجز في معرفة العلم ما يجب على القادر ٦٩

الفصل الثاني : الملامح العامة لأهل السنة والجماعة .

الموضوع — الصفحة

أهل السنة يجمعون الدين علماً وعملاً وظاهراً وباطناً ٧١
أهل السنة هم أهل الجماعة ٧٢
أهل السنة هم أهل التوسط والأعتدال ٧٢
أهل السنة هم أهل الجمل الثابتة بالقرآن والسنة والإجماع ٧٣
أهل السنة هم الامتداد التاريخي لأهل ملة الإسلام ٧٣
أهل السنة هم أهل الشريعة ٧٤
أهل السنة لا يأخذون إلا ما كان ثابتاً عن الرسول ﷺ والسلف الصالح ٧٤
أهل السنة هم أعلم الناس بأحوال الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله ٧٥
أهل السنة هم كل من يحب الحديث النبوي ويلتزم به ٧٥
أهل السنة متفاوتون في معرفة السنة والإلمام بها والصبر عليها ٧٥
أهل السنة تختلف إجتهاداتهم تبعاً لتفاوت علمهم بالسنة ٧٥
أهل السنة يضبطون إختلاف اجتهاداتهم بالحرص على الوحدة والائتلاف ٧٦
أهل السنة لا يخرج الحق عنهم ٧٧
أهل السنة هم الطائفة المنصورة ٧٧
أهل السنة بشر عاديون فيهم الصديقون ومنهم العصاة ٧٨
أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ ٧٨

الفصل الثالث : الخصائص الأخلاقية والسلوكية لأهل السنة والجماعة .

أهل السنة خير الناس للناس ٧٩
أهل السنة يأتمون بالكتاب والسنة في جميع علاقاتهم ٨٠
أهل السنة هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحفاظ على الجماعة ٨٠
أهل السنة يحافظون على الجماعة ويلتزمون الطاعة في المعروف ٨١
أهل السنة يحملون أمانة العلم وأمانة المحافظة على الجماعة ٨٢
أهل السنة ولاؤهم للحق وحده ٨٢
أهل السنة يوالي بعضهم بعضاً ولاءً عاماً ويعذر بعضهم بعضاً ٨٣
أهل السنة يوالون ويعادون على أساس الدين ولا يمتحنون الناس بما ليس

الموضوع	الصفحة
من عند الله	٨٣
أهل السنة يعملون على تأليف القلوب واجتماع الكلمة	٨٥
أهل السنة يتناظرون في المسائل العلمية والعملية مع بقاء الألفة بينهم	٨٥
الفصل الرابع : الأصول التي اتفق عليها أهل السنة .	
أهل السنة والجماعة عقيدتهم في صفات الله : إثبات بلا تكييف وتنزيه بلا تعطيل	٨٧
أهل السنة والجماعة عقيدتهم في القرآن : أنه كلام الله غير مخلوق	٨٨
أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله عز وجل لا يراه أحد في الحياة الدنيا	٨٨
أهل السنة والجماعة متفقون على رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار في الجنة	٨٩
أهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت	٨٩
أهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر بجميع درجاته	٩٠
أهل السنة والجماعة يقولون : إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص	٩١
أهل السنة يعتقدون أن الإيمان أصل وفروع وأن الإيمان لا يزول إلا بزوال أصله ولذلك فهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بمطلق المعاصي إلاّ أن يزول أصل الإيمان	٩٢
أهل السنة والجماعة متفقون على جواز إجتماع العذاب والثواب في حق الشخص الواحد ولكنهم في الوقت نفسه لا يوجبون العذاب أو الثواب لمعين إلا بدليل خاص	٩٣
أهل السنة والجماعة يحبون ويتولون صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته وازواجه دون أن يعتقدوا بعصمة أحد غير رسول الله ﷺ	٩٤
أهل السنة والجماعة يصدقون بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات	٩٥
أهل السنة والجماعة مجمعون على قتال من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين	٩٥
أهل السنة والجماعة يغزون مع أمرائهم أبراراً كانوا أم فجاراً من أجل إقامة	

الموضوع	الصفحة
شرائع الإسلام	٩٦
الفصل الخامس : أمور يقبل فيها الخلاف داخل أهل السنة والجماعة .	
الخلاف في عثمان وعليّ — رضي الله عنهما — أيهما أفضل	٩٧
الخلاف فيما يسوغ فيه الإجتهاد ويعد مذهباً لقائله مثل أول نعمة أنعم بها على عبده	٩٧
الخلاف في رؤية محمد ﷺ لربه وفي مسألة عروجه بروحه ﷺ والخلاف في أمور « الأحكام »	٩٨
الخلاف في تكفير تارك المباني الأربعة	٩٨
الخلاف في كثير من مسائل الفرائض والعبادات والمعاملات	٩٨
الفصل السادس : الصفات العامة للمفارقين للسنة والجماعة .	
الجهل بالحق والحكم بالهوى	١٠١
تضارب آرائهم والتفرق والمعاداة	١٠١
الغلو في الدين	١٠٢
الجهل بالحق والنفاق	١٠٣
التعصب مع البغي على المخالف لهم	١٠٣
ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة	١٠٤
البغي والاعتداء والتفريط	١٠٥
تكفير وتفسيق مخالفهم في الاجتهاد والتأويل	١٠٥
يقرنون بين الخطأ والإثم	١٠٦
يخرجون عن السنة والجماعة ويبادرون أهل السنة بالبغي والظلم والعدوان	١٠٧
الفصل السابع : حكم المخالفين للسنة .	
المخالفون للسنة بعضهم مجتهد مخطيء وبعضهم جاهل معذور أو متعد ظالم وبعضهم منافق زنديق وبعضهم مشرك ضال	١٠٩
المجتهد المخطيء	١٠٩

الموضوع	الصفحة

الجاهل المعذور ١١٠
منهم من خالف السنة لقلة اعتمادهم على القرآن والسنة ١١٠
منهم من خالف السنة لاجتهاد خاطيء أو تأويل بعيد ١١٣
المتعد الظالم ١١٤
المنافق الزنديق ١١٦
المشرك الضال ١١٨

الفصل الثامن : رؤوس الفرق المخالفة للسنة والجماعة .

أهل السنة والجماعة لا يحكمون على غيرهم من الفرق إلا بالعلم والعدل ١٢٣
رؤوس الفرق المخالفة خمسة : الخوارج والرافضة والمرجئة والقدرية والجهمية ١٢٣
أولاً : الخوارج ١٢٤
ثانياً : الشيعة والرافضة ١٢٧
ثالثاً : المرجئة ١٣١
رابعاً وخامساً : القدرية والجهمية ١٣٣

الفصل التاسع : نظرة أهل السنةوالجماعة إلى البدع المخالفة للسنة وإلى أهلها

بدع لا خلاف على عدم تكفير أصحابها ١٤١
بدع هناك خلاف على تكفير أو عدم تكفير أصحابها ١٤٢
بدع لا خلاف على تكفير أصحابها بإطلاق ١٤٣
مذهب أهل السنة والجماعة في الحكم على شخص معين ١٤٣
مسلك أهل السنة تجاه من اجتهد أو تأول من علماء المسلمين ١٤٧
نظرة أهل السنة إلى المبتدعة تختلف عن نظرتهم إلى من علم كفره ١٤٨

الفصل العاشر : معاملة أهل السنة والجماعة لأهل البدع .

أولاً : ميزان أهل السنة والجماعة في معاملة أهل البدع ١٤٩
ثانياً : معاملة أهل السنة والجماعة للمستتر ببدعته تختلف عن المظهر لها والداعي إليها ١٥٤

الموضوع	الصفحة

ثالثاً : الضوابط الشرعية عند أهل السنة والجماعة في معاملة أهل البدع ١٥٧
رابعاً : أهل السنة والجماعة يدعون لأهل البدع بالهداية والرحمة ما لم يُعلم كفرهم ١٦٠
خامساً: موقف أهل السنة والجماعة من الصلاة خلف أهل البدع ١٦٢
سادساً: موقف أهل السنة والجماعة من تفسيق أو تكفير أهل البدع ١٦٣

الباب الثالث

الفصل الأول : نتائج البحث (تلخيص مركز للباب الثاني).

أهل السنة والجماعة هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن اتبعهم بإحسان وسار على دربهم والتزم بأصولهم ومنهجهم العلمي والعملي ١٦٧
أهل السنة والجماعة ليس لهم إسم يسمون به إلا أهل السنة والجماعة ١٦٧
أهل السنة والجماعة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم من أمة محمد ﷺ ١٦٨
أهل السنة والجماعة يتفاوتون في العلم بالسنة والإلتزام بها ١٦٨
أهل السنة والجماعة يتميزون بخصائص سلوكية وأخلاقية مستمدة من القرآن والسنة ١٦٩
أهل السنة والجماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في إطار المحافظة على جماعتهم وفق ماتوجبه الشريعة ١٧٠
أهل السنة والجماعة متفقون على أصول هامة أصبحت شعاراً لهم ١٧٠
أسباب البدع والضلال والتفرق ومقامات أهل البدع في ذلك ١٧٢
أنواع المخالفين للسنة ١٧٢
الفرق المخالفة للسنة ١٧٣
نظرة أهل السنة والجماعة إلى البدع المخالفة وأهلها ١٧٥
الأصول التي يلتزمها أهل السنة في معاملة أهل البدع ١٧٧

الفصل الثاني : مراحل وأحوال الفرقة الناجية .

الحالة الأولى : وجود الجماعة الملتزمة بالسنة ووجود الإمام الشرعي المتبع لمذهبهم ١٨١

الموضوع الصفحة

الحالة الثانية : وجود الجماعة الملتزمة بالسنة ووجود الإمام المبتدع الملتزم بأحد مذاهب أهل البدع ١٨٢
الحالة الثالثة : وجود الجماعة الملتزمة بالسنة وغياب الإمام الشرعي لا عادلاً ولا جائراً ١٨٣
الحالة الرابعة : غياب الجماعة الملتزمة بالسنة ومن ثم الإمام المتبع لمذهبهم ١٨٣

الفصل الثالث : نظرة إلى الواقع .

الفرق المخالفة للسنة لاتزال تبث سمومها في جسد الأمة المسلمة ١٨٥
أفكار الفرق المنحرفة تؤثر في فكر وسلوك كثير من المسلمين ١٨٥
المنافقون والزنادقة ينشرون أفكار الفرق الضالة من خلال مواقعهم الحساسة في أجهزة الفكر والثقافة والإعلام ١٨٥
معسكر الرافضة مايزال أحد الأخطار الأساسية التي تهدد أهل السنة ١٨٦
معسكر أهل السنة هو أقل المعسكرات تنظيماً وتخطيطاً وتعاوناً ١٨٦
جماعات أهل السنة المختلفة تلتقي على نفس الأصول العامة لأهل السنة والجماعة ١٨٧
الموقف الإجمالي للجماعات المختلفة على ساحة أهل السنة والجماعة ١٩٠
المبرر الحقيق لتعدد الجماعات التي ترفع كلها شعار أهل السنة والجماعة ١٩٠
السلبيات السائدة بين هذه الجماعات والتي تعوق الإنطلاق الإيجابي لأهل السنة والجماعة ككل ١٩١
المستوى المطلوب من الحسم والوضوح في نفوس أهل السنة تجاه العلمانية ١٩٤
الخاتمة : ما العمل؟ ومن أين نبدأ؟ وماهي الخطوة الأولى ونقطة الإنطلاق في الطريق الصحيح نحو الهدف النشود؟ ١٩٩